تُرجمت لأكثر من 20 لغة وحُوّلت إلى مسلسل تلفزيوني

لغز المفتش مونتالبانو

'من روائع الأدب البوليسي الإيطالي'
Guardian

أندريا كاميليري

شكل الماء

مكتبة

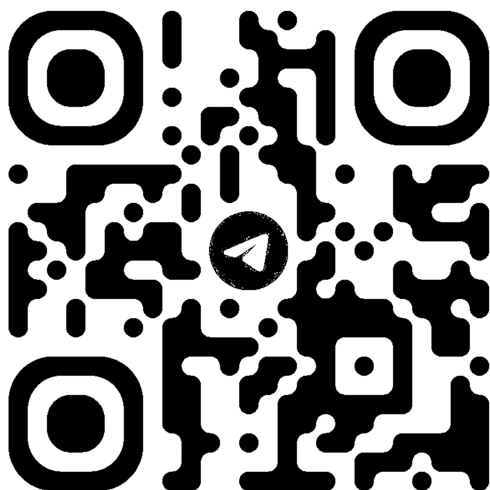
رواية

دار الساقي

ترجمة
رامي طويل

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa



شكل الماء

أندريا كاميلليري

شكل الماء

ترجمة

رامي طويل



دار الساقي

29 5 2025 مكتبة
t.me/soramnqraa

"Questo libro è stato tradotto grazie ad un contributo per la traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano"

"حظيت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية"

الطبعة الأولى 2024

ISBN 978-614-03-2251-6

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi
Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP
Tel: +44 (0) 20 7221 9347

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تصميم الغلاف: عفيفة حلبي

@SaqiBooks  **@DarAlSaqi**

@SaqiBooks  **دار الساقي**

Saqi Books  **DarAlSaqi**

@saqibooks  **@daralsaqi**

تنويه

بلدة فيغاتا هي بلدة متخيّلة ابتكرها كاميلليري متوافقةً إلى حدّ بعيد مع مسقط رأسه بورتو إمبيدوكلي، الواقعة جنوب شرق صقلية، مبتكراً لها جغرافيتها الخاصة وتاريخها ونظامها الاجتماعي والسياسي، ماضياً أبعد من ذلك بابتكاره لغتها الخاصّة التي تضمّنت العديد من المفردات المشتقة من الإيطالية طوراً ومن اللهجة الصقليّة في أحيانٍ أخرى. أحداث الرواية تجري في هذا الفضاء المتخيّل الشاسع الذي جعله كاميلليري مسرحاً لسلسلة من الروايات ترتكز على التحقيقات التي يجريها المحقّق مونتالبانو.

حفاظاً على التباينات المقصودة في مستوياتٍ ثلاثة من اللغة التي اعتمدها كاميلليري في سرده، ورغبةً في عدم فقدان شيء من المتعة، آثرنا استخدام بعض الجمل والمفردات العاميّة، وكذلك بعض الرطانة في المواضع التي استوجبت ذلك.

المترجم

- ١ -

لم يتسلّل ضوء الفجر إلى فناء "سبليندور"، الشركة المتعاقدة على جمع النفايات من فيغاتا. سحابةٌ كثيفة منخفضة غطت السماء تماماً كما لو أنها قطعةٌ من الخيش الرمادي امتدت من حافّة إلى حافة، صفحةٌ كتيمة متلبدة، رياح الخماسين تأخرت عن الخروج من سباتها. رئيس العمّال، وقبل تعيين المهام، أعلن أنّ بيبّي سكيماري وكالوتزو بروكولليري سيتغيّبان اليوم، ولأيام قادمة. الغياب في الحقيقة أكثر من مبرر؛ الاثنان ألقي القبض عليهما في الليلة السابقة أثناء محاولتهما سرقة السوبرماركت وهما مسلّحان.

بالنسبة إلى بينو كاتالانو وسارو مونتابيرتو، المسّاحَين الشابّين المتعطّلين عن وظيفتيهما كمسّاحين، واللذين عُيّنا كعاملي نظافةٍ مؤقتين بعد تدخلٍ سخيّ من النائب كوسومانو الذي قاتلا في حملته الانتخابية جسدياً وروحياً (تماماً بهذا

الترتيب: بذل الجسد أكثر بكثير مما كانت الروح مستعدة لبذله)، فقد عيّنهما رئيسُ العمّال في الوظيفة الشاغرة بدلاً من بيبّي وكالوتزو، تحديداً في القطاع المسمّى "المنارة"، لأنّ الراعي على ما يبدو قد احتفظ فيه بأغنامه منذ زمن بعيد. هو امتداد كبير يخرج كرأسٍ دائري من البحر المتوسط ويصل مشارف البلدة التي تنتهي تقريباً عند الأعمدة الأثرية، ومن خلفه بقايا المنشأة الكيميائية الضخمة التي أسسها النائب كوسومانو في كلّ الأمكنة حين بدا أنّ رياح الثروات العظيمة تهبّ بقوّة، لكن سرعان ما هدأت الريح وصارت خيطاً من نسيم تاركةً إيّاه ذاهلاً، فكان أقدر من إعصارٍ على إلحاق الأذى، مخلفاً جيشاً من المسرّحين والعاطلين من العمل. ولمنع الحشود من المهاجرين السود والأقل سواداً، من سينغاليين وجزائريين وتونسيين وليبيين، من إقامة أعشاشهم في ذلك المصنع، أقيم حوله سور مرتفع تآكلت فوقه الهياكل بفعل سوء الطقس والإهمال وملح البحر، والتي ما تزال بارزةً، ودوماً، بحطامها المجنون، تبدو أكثر شبهاً بهندسة غاودي[1] المعمارية.

المنارة، حتى بعض الوقت قبل ذلك، كانت بالنسبة إلى أولئك الذين يطلق عليهم بقليل من النبل اسم النبّاشين مكاناً للكدّ بحثاً عن المخلّفات؛ وسط القصاصات الورقية، الأكياس

١ أنطونيو غاودي: مهندس معماري إسباني. (المترجم)

البلاستيكية، علب البيرة والكوكاكولا، الخراء المغطّى بطريقة سيئة أو المتروك للريح، بين حين وآخر يظهر واقٍ ذكري مرميّ يتيح للمرء التفكير، إن امتلك الرغبة والمخيلة، أن يتصوّر تفاصيل ذلك اللقاء. منذ سنة صارت الواقيات الذكرية في تلك البقعة بحراً، بساطاً، منذ استخلص وزيرٌ متجهّم الوجه وقاتم، تليق به طاولة لومبروزيان[١]، من الأفكار الأكثر قتامةً وانغلاقاً من وجهه، فكرةً بدت له أنها ستحلّ على الفور مشكلات النظام العام في الجنوب. شارك تلك الفكرة مع زميل له كان مسؤولاً في الجيش وبدا أحياناً نسخةً من بينوكيو خارجة من كتاب الرسوم، فقرر الاثنان إرسال بعض الوحدات العسكرية إلى صقليّة بغية "السيطرة على الإقليم"، للتخفيف عن عناصر الدرك، الشرطة، المخابرات، وحدات العمليات الخاصة، حرّاس الأمن الداخلي، الطرق، السكك الحديدية، الموانئ، أعضاء النيابة العامة المناهضة للمافيا، مجموعات مكافحة المافيا، مكافحة الإرهاب، مكافحة المخدرات، مكافحة السرقة، مكافحة الاختطاف، وبعض ما تمّ حذفه للإيجاز من ضمن مسؤوليات كثيرة أخرى. بعد هذه الفكرة العظيمة لاثنين

---

١ لومبروزيان: نسبةً إلى تشيزاري لومبروزو مؤسّس المدرسة الإيطالية لعلم الجريمة الوضعي والقائل بإمكانية التعرف على المجرم من العيوب الخلقية. (م.)

من رجال الدولة البارزين، أبناء إقليم بيومينتي[1] الأم والمجنّدون الفريولانيّون[2] حليقو اللحى، الذين حتى يوم سابق كانوا قد تجمّعوا لاستنشاق هواء جبالهم المنعش واللاسع، وجدوا أنفسهم فجأة يلهثون متألمين، ويخاطرون في أماكن إقامتهم المؤقتة، في بلدات، شاؤوا أم أبوا، لا ترتفع سوى متر واحد عن سطح البحر، بين أناس يتحدثون لهجةً غير مفهومة تعتمد، أكثر من الكلمات، على الصمت وإيماءات الحواجب المتعذر فهمها وارتعاشات التجاعيد غير الملحوظة. لقد تكيّفوا بأفضل ما يستطيعون بفضل أعمارهم الصغيرة، ومدّ إليهم أبناء فيغاتا أنفسهم يد العون متعاطفين مع جهل أولئك الشبّان الغرباء وارتباكهم. للتخفيف من قسوة منفاهم فكّر جيجيه غوللوتّا، وهو رجلٌ متوقّد الذكاء، بالخنق القسري لمواهبه الطبيعية كقوّاد والتخفي تحت ستار مروّج صغير للمخدرات والأشياء الخفيفة. عبر طرقٍ كثيرة ومن خلال مسالك وزارية بلغه خبر الوصول الوشيك للجنود، ولتحويل اللمعة الجنيّة إلى عمل حقيقي وواقع ملموس لجأ جيجيه حالاً إلى وساطة المسؤولين للحصول على عدد لا يحصى من التصاريح شديدة التعقيد والتي لا غنى عنها. ممّن يتوجّب الأمر؛ من أولئك المسيطرين على الإقليم فعلاً

---

١ بيومينتي: إقليم في شمال إيطاليا تحيطه جبال الألب من ثلاث جهات. (م.)

٢ الفريولانيّون: نسبةً إلى إقليم فريولي الواقع في شمال شرق إيطاليا. (م.)

والذين لم يحلموا مجرد حلم بإصدار امتيازات على أوراق مختومة. باختصار، استطاع جيجيه افتتاح سوقه المتخصصة بالأجساد اليانعة ومجموعة متنوعة من المخدرات الخفيفة في المنارة. الأجساد الفتية بمعظمها كانت تجيء من البلدان الشرقية التي تحرّرت أخيراً من نير الشيوعية التي، كما يعلم الجميع، تنكّرت لكلّ كرامةٍ إنسانية. بين الشجيرات وشاطئ المنارة، في الليالي، استعادت الكرامة المستردةُ ألقها. لم يكن ثمة نقص بفتيات بلدان العالم الثالث، المخنثين، المتحولين جنسياً، الإناث النابوليتانيات، المثليين البرازيليين. كان هناك ما يرضي جميع الأذواق، تبذير، مهرجان. ازدهرت التجارة بما يرضي الجيش، وجيجيه، وأولئك الذين منحوا جيجيه التصريحات وحصلوا على نسبهم المئوية الفعلية المتفق عليها.

***

توجّه بينو وسارو إلى مكان العمل وكلّ منهما يدفع عربته الخاصة. للوصول إلى المنارة كان الطريق سيستغرق نصف ساعة إن تمّ الأمر بالخطوات البطيئة التي تمشيها أقدامهما كما يفعلان. الربع ساعة الأولى أمضياها صامتين، كانا متعرّقين فعلاً وقد التصقت ملابسهما بجسديهما. ثمّ كسر سارو الصمت.

"إنّ بيكوريللا هذا ديوث" أعلن.

"ديّوث كبير" أكّد بينو.

بيكوريللا هو رئيس العمّال المكلف بتعيين الأماكن الواجب تنظيفها، وكان يمتلك كراهيةً عميقة وواضحة تجاه أولئك المتعلّمين، هو الذي نجح، في الأربعين من العمر، باجتياز الصفّ الثالث لأنّ كوسومانو تدخّل بوضوح مع المعلم. لذا فقد عمد دوماً أن يقع العمل الأكثر إذلالاً وإرهاقاً على عاتق الخريجين الثلاثة الخاضعين لنفوذه. في ذلك الصباح ذاته كلّف شيكّو لوريتو بامتداد الرصيف حيث أبحرت الشحنة إلى جزيرة لامبيدوزا. ما سيعني أن شيكّو، المحاسب، سيضطر للتعامل مع قناطير من النفايات التي خلفتها الحشود الصارخة من السيّاح المتعددي اللغات نعم، غير أنهم يشتركون بازدرائهم التام للنظافة الشخصية والعامة، وقد خلّفوها وراءهم يومَي السبت والأحد في انتظار لحظة المغادرة. ربّما يواجه بينو وسارو المشكلات بعد يومين من خروج العسكر بحرية.

عند وصولهما إلى تقاطع شارع لينكولن مع شارع كيندي (يوجد في فيغاتا أيضاً فناء باسم آيزنهاور وزقاق باسم روزفلت) توقف سارو.

"سأصعد إلى البيت للاطمئنان إلى حال الطفل" قال لصديقه: "انتظرني، هي دقيقة واحدة".

لم ينتظر جواب بينو، ولج مدخل إحدى ناطحات السحاب

القزمة، التي بلغت في أقصى ارتفاعاتها اثني عشر طابقاً، وقد بنيت تقريباً في الوقت نفسه الذي أنشئ فيه المصنع الكيميائي وسرعان ما تهالكت، إن لم تكن مهجورة، كما يبدو هذا البناء. بالنسبة إلى أولئك الواصلين عن طريق البحر تمّ تقديم فيغاتا لهم على أنها صورة مصغرة ساخرة عن مانهاتن؛ وربّما يفسر هذا أسماء المواقع الجغرافية.

نينيه، الطفل، كان يبقى متيقظاً. ينام لساعتين في الليل أو لا ينام، وما تبقى من الوقت يمضيه بعينين جاحظتين دون أن يبكي مطلقاً. كم من الوقت مضى دون أن يُرى الطفل الضامر يدمع؟ يوماً بعد يومٍ استهلكه مرضٌ مجهول السبب والعلاج، أطباء فيغاتا لم يكونوا قادرين على علاجه، ومن الضروري نقله إلى الخارج، إلى بعض المتخصصين الكبار، لكن المال كان هو العائق.

بمجرد أن وقع نينيه على عيني والده المطفأتين تجعّد جبينه. لم يكن يعرف الكلام، لكن من الجليّ أنّه عبّر بتلك الإيماءة الصامتة عن لومه لمن كبّله بذلك القيد.

"إنّه أفضل قليلاً، الحمّى تنخفض" قالت زوجته من أجل إسعاده فقط.

***

كانت السماء مكشوفة وأشعّة الشمس الآن تكسر الحجر. في مكب النفايات الذي أنشئ، بمبادرة خاصة، حيث كانت في وقت من الأوقات البوابة الخلفية للمصنع، أفرغ سارو عربته عشرات المرات وشعر بظهره يوشك أن ينكسر. عند وصوله البقعة المستهدفة من الممر المحاذي للسور والمؤدي إلى المقاطعة، رأى على الأرض شيئاً يتلألأ متوهجاً. انحنى ليتبيّن الأمر بشكل أفضل. كانت ميداليةً على هيئة قلب، شديدة الضخامة، مرصّعة بالألماس وفي وسطها جوهرة كبيرة جداً، ولا تزال معلّقةً إليها سلسة من الذهب الخالص لتطويق العنق مقطوعة من نقطة واحدة. بحركة خاطفة امتدت يمين سارو، فاختطف الطّوقَ ودسّه في جيبه. بدا لسارو أنّ يمناه، تحت وقع الذهول من المفاجأة، تصرفت من تلقاء نفسها دون أيّ أوامر من عقله. نهض مبتلاً بالعرق، تلفّت حوله ولم يرَ أيّ مخلوق.

بينو، الذي اختار امتداد المنارة الأقرب إلى الشاطئ، لاحظ فجأة، على بعد عشرين متراً تقريباً، مقدّمة سيّارة تبزغ من بقعةٍ أكثر سماكةً من محيطها. وقف واجماً، فمن غير الممكن أنّ أحداً قد تأخر حتى تلك الساعة، السابعة صباحاً، متشبثاً بعاهرة. راح يقترب منسلّاً، يرفع قدماً ويضع أخرى، محنيّ الجسد عن آخره، وعندما صار بمواجهة المصابيح الأمامية

وقف فجأة. لم يحدث أيّ شيء على الإطلاق، لم يصرخ عليه أحد ألّا يحشر أنفه فيما لا يعنيه. بدت السيّارة فارغة. راح يدنو أكثر، وأخيراً رأى ظلّاً مشوشاً لرجل ماكث دون حراك في مقعد القيادة، رأسه ملقى للخلف، ويبدو غارقاً في نوم عميق. لكن بينو أدرك، بسبب الجسد والأنفاس، أن ثمّة ما يثير الارتياب. التفت، وراح ينادي سارو الذي وصل لاهثاً بعينين مفتوحتين عن آخرهما.

"ماذا هناك؟ ماذا تريد بحق الجحيم؟ ما خطبك؟".

شعر بينو بشيء من العدائية في أسئلة صديقه، لكنه أرجع ذلك إلى الجهد الذي بذله للوصول إليه.

"شوف هون".

استجمع بينو شجاعته واقترب من باب المقعد المجاور للسائق، حاول فتحه فلم يفلح بذلك، كان مقفلاً. بمساعدة سارو، الذي بدا أنه قد هدأ الآن، حاول الوصول إلى الباب الآخر، الذي اتكأ إليه جزء من جسد الرجل، لكن تعذر عليه الأمر لأن السيّارة، وهي من نوع BMW ضخمة وخضراء اللون، كانت محشورة بالأجمة بما يعيق اقتراب أحد من ذلك الجزء. راحا يحشران نفسيهما منحنيين تجرحهما أشواك العلّيق ليتمكنا من رؤية وجه الرجل بشكل أفضل. لم يكن نائماً. عيناه مفتوحتان وثابتتان. في اللحظة ذاتها أدركا أنّ الرجل ميت.

جمد بينو وسارو خوفاً وذعراً، ليس لأنهما على مرأى الموت، بل لأنهما تعرّفا إلى الميت.

***

”يبدو لي أننا نأخذ ساونا“ قال سارو وهو يركض عبر طريق المقاطعة نحو كشك الهاتف ”ضربة باردة وضربة سخنة“.

بمجرد تحررهما من الشلل الناجم عن تعرفهما إلى هوية الميت توصلا إلى اتفاق؛ قبل إبلاغ الجهات المختصة حتى، كان عليهما إجراء مكالمةٍ هاتفية أخرى. كانا يحفظان رقم النائب كوسومانو، وقام سارو بطلبه. لكن بينو لم يدع الهاتف يكمل رنّته الأولى.

”أغلقه حالاً“ قال.

انصاع سارو لا شعورياً.

”ألا تريد أن نخبره؟“.

”لنفكّر في الأمر لحظة، لنفكر جيداً، الفرصة مهمّة. لكن أنا وأنت نعلم أنّ النائب هو دمية“.

”ماذا تريد القول؟“.

”إنه دمية بين يدي المهندس لوباريللو الذي كان كلّ شيء فعلاً. بموت لوباريللو لم يعد كوسومانو أي أحد، صار مجرّد خرقة بالية“.

"إذاً؟".

"إذاً لا شيء".

توجّها نحو فيغاتا، لكن بعد بضع خطوات أوقف بينو سارو:

"ريتزو" قال.

"هذا لا أهاتفه أنا، أنا أخشاه، ولا أعرفه".

"ولا حتى أنا، لكني سأتصل به على أي حال".

حصل بينو على الرقم من الاستعلامات. كانت الساعة تقارب الثامنة إلا ربعاً. أجاب ريتزو من الرنّة الأولى.

"المحامي ريتزو؟".

"نعم".

"عذراً سيدي المحامي إن كنتُ أزعجك في مثل هذا الوقت... لقد عثرنا على المهندس لوباريللو... يبدو أنه ميت".

صمت قليلاً. ثمّ تحدث ريتزو:

"ولماذا تخبرني أنا؟".

فوجئ بينو، لقد توقّع كلّ شيء باستثناء هذه الإجابة. بدا الأمر مستغرباً بالنسبة إليه.

"لكن كيف؟ ألستَ حضرتكَ... صديقه المفضّل؟ اعتقدنا أنه من الصائب أن...".

"أشكرك. لكن قبل كلّ شيء عليكم القيام بواجبكم. إلى اللقاء".

كان سارو يصغي إلى المكالمة مسنداً خدّه إلى بينو. تبادلا النّظرات محتارَين. بالنسبة إلى ريتزو كان الأمر كما لو أنّهما قد أخبراه عن جثّة مجهولة الهويّة.

"أيّ منيكٍ هذا، كان صديقه، أليس كذلك؟" صاح سارو غاضباً.

"وما أدرانا بذلك؟ ربّما يكونان قد تشاجرا في الآونة الأخيرة" قال بينو معزيّاً.

"والآن، ماذا نفعل؟".

"لنذهب للقيام بواجبنا كما قال المحامي" ختم بينو.

انطلقا باتجاه البلدة قاصدين مركز الشرطة مباشرةً. الذهاب إلى الدرك لم يخطر ببالهما حتى. قادهما ملازمٌ من ميلانو. فيما كان المحقق من كاتانيا، واسمه سالفو مونتالبانو، وكان عندما يريد فهم أمرٍ فإنه يفهمه.

-٢-

"مرّة أخرى".

"لا" قالت ليفيا وهي تواصل التحديق إليه بعينين أكثر تألقاً بفعل الإثارة.

"أرجوكِ".

"لا، قلتُ لا".

"أحبُّ دائماً أن أكون مجبرةً بعض الشيء" تذكّر أنها همست بذلك في أذنه مرّةً في لحظة نشوة، فحاول حشر ركبته بين فخذيها المضمومين بقوة وهو يمسك معصميها بوحشية ويفرد ذراعيها عن آخرهما لجعلها تبدو مصلوبةً.

تطلّعا إلى بعضهما للحظاتٍ، لاهثَين، ثمّ استسلمت فجأة.

"نعم" قالت: "نعم، الآن".

في تلك اللحظة بالذات رنّ جرس الهاتف. مدّ مونتالبانو ذراعه لالتقاط سماعة الهاتف دون أن يفتح عينيه حتى،

محاولاً التشبث بأذيال الحلم الذي تلاشى بغتة.

"برونتو". كان غاضباً لإزعاجه.

"أيها المحقق، لدينا عميل". تعرّف إلى صوت الرقيب فاتزيو، نصفه الآخر، توأمه، والذي ما يزال في المستشفى بسبب رصاصة ملعونة استقرّت في بطنه بعد أن أطلقها عليه رجل أراد التصرف كرجل مافيا فيما هو مجرّد ديوث بائس ثمنه نصف ليرة. كلمة عميل، في مصطلحاتهم الخاصّة، تعني وجود ميت عليهم التعامل معه.

"من هو؟".

"ما زلنا لا نعرف".

"كيف قتلوه؟".

"لا نعرف أيضاً. بل إننا لا نعرف حتى إن كان مقتولاً".

"أيها الرقيب، أنا لا أفهم. توقظني دون معرفة أيّة منيوكة؟".

تنهّد بعمق للتخلص من الغضب الذي كان بلا معنى والذي تحمّله الآخر بحلم كبير.

"من عثر عليه؟".

"اثنان من عمّال النظافة في المنارة. وجدوه داخل سيارة".

"سآتي حالاً. وأنت في هذه الأثناء اتصل بمونتيلوزا

واطلب أن يحضر فريق البحث الجنائي، وأبلغ القاضي لو بيانكو".

***

بينما هو تحت الدوش توصّل إلى استنتاج مفاده أنّ الميت، لا بدّ، واحد من أفراد عصابة المافيا كوفّارو من فيغاتا. قبل ثمانية أشهر، ولأسباب تتعلق بترسيم حدود المناطق، اندلعت حرب شعواء بين كوفّارو وسيناغرا من فيلا؛ ميتٌ في كلّ شهر، بالتناوب وبانتظام عظيم، واحدٌ من فيغاتا يليه واحد من فيلا. الأخير كان ماريو سالينو، أطلق عليه النار في فيلا أشخاص من فيغاتا. لذا من الواضح هذه المرّة أنّه دور أحد الكوفّاريين.

قبل الخروج من المنزل – هو يعيش في فيلّا صغيرة مشرفة على الشاطئ مباشرة في الجانب المقابل للمنارة – اعترته الرغبة بمهاتفة ليفيا في جنوة. أجابت على الفور وهي نائمة.

"اعذريني، لكن أردتُ سماع صوتك".

"كنتُ أحلم بكَ" قالت هي: "لقد كنتَ معي".

أوشك مونتالبانو أن يخبرها أنه حلم بها أيضاً، لكنه لجم نفسه بسبب تخيلاته المجنونة.

"وماذا كنا نفعل؟".

"ذاك الذي لم نفعله منذ زمن طويل" قالت هي.

***

في مركز الشرطة، باستثناء الرقيب، وجد ثلاثة عناصر فقط. الآخرون كانوا يلاحقون صاحب متجر ألبسة هرب بعد أن أطلق النار على شقيقته بسبب الإرث. فتح باب غرفة الأمن. عاملا النظافة كانا جالسين على المقعد، ملتصقين أحدهما بالآخر، شاحبين رغم الحرّ.

"انتظراني، سأعود بعد قليل".

قال لهما مونتالبانو وبقي الاثنان مستلبين دون أن يجيبا حتّى. الأمر معروف، فعندما يتورط المرء مع القانون، لأي سبب، فإن المسألة دائماً تطول كثيراً.

"هل أخبر أحدٌ منكم الصحافيين؟" استجوب المحقق رجاله، فأومأوا له أن: لا.

"انتبهوا؛ لا أريد أن أتعثّر بهم".

بخجل تقدّم غاللوتزو رافعاً إصبعين كأنه يستأذن الذهاب إلى المرحاض:

"حتى صهري؟".

صهر غاللوتزو صحافيّ في Televigàta يشتغل في أخبار الجريمة، وكان مونتالبانو قادراً على تخمين الخلافات

العائلية التي ستقع إن لم يخبره غاللوتزو بأي شيء. غاللوتزو في الحقيقة كان بمثابة عين وجاسوس له.

"حسناً. فليأتِ ولكن فقط بعد إزالة الجثّة. ويمنع التصوير إطلاقاً".

غادروا في سيارة الخدمة تاركين جياللومباردو للحراسة. غاللو كان خلف المقود، وموضوعه مع غاللوتزو هو الحزازير السهلة مثل: "أيها المحقق، ماذا يقولون في قن الدجاج؟" ومونتالبانو، الذي يعرفها جيداً، يوبخهما.

"لا تستعجل، ليس ثمّة ما يستدعي".

عند منعطف كنيسة كارميني لم يستطع بيبّي غاللو منع السيارة من الانزلاق، راحت تنزل بتسارع كبير. سمعوا دوياً قوياً، يشبه دوي رصاصة وانحرفت السيارة عن مسارها. خرجوا منها؛ كان الإطار الأيمن الخلفي قد انفجر وخرج عن محوره، وقد جرحته بوضوح شفرة حادّة علقت به وقتاً طويلاً.

"العرص، ابن العاهرة" استشاط الرقيب.

مونتالبانو كان غاضباً بشكل جليّ.

"لكن لمعلوماتكم؛ إنّ إطاراً ينفجر كل أسبوعين، يا يسوع! وأنا أنبّهكم كل صباح أن تتحققوا من الإطارات قبل المغادرة، لكنّكم مغفلون لا تكترثون! سينتهي الأمر

بأن تكسر رقبة أحد ما".

***

لأسباب مختلفة استغرق تغيير العجلة عشر دقائق، وعند وصولهم إلى المنارة كان فريق البحث الجنائي من مونتيلوزا قد حضر. إنهم في مرحلة التأمّل، كما يسمّيها مونتالبانو. هذا يعني أنّ خمسة أو ستة عناصر يغزلون حول المكان، رؤوسهم محنية، أيديهم طبعاً في جيوبهم أو خلف ظهورهم. يبدون مثل فلاسفة منغمسين بالأفكار العميقة، وهم في الحقيقة يجولون بعيون مفتوحة بحثاً عن دليل على الأرض، أثر، خيط.

حالما رآه هرع جاكوموتزي، رئيس فريق البحث الجنائي، لملاقاته.

"لماذا لا يوجد صحافيون؟".

"لا أريدهم".

"سيطخونك هذه المرة لإخفائك خبراً كهذا عنهم". كان مضطرباً بشكل واضح: "هل تعرف من هو الميت؟".

"لا، أخبرني من يكون".

"إنه المهندس سيلفيو لوباريللو".

"اللعنة" كان هذا تعليق مونتالبانو على كل شيء.

"وهل تعرف كيف مات؟".

"لا. وليس لدي الرغبة في معرفة ذلك. سأراه بنفسي".

عاد جاكوموتزي إلى رجاله. كان المصور الجنائي قد انتهى من عمله، ووصل الدور إلى الطبيب باسكوانو. رأى مونتالبانو أنّ الطبيب مرغم على العمل في وضعية غير مريحة؛ نصف جسده محشور داخل السيارة يلويه باتجاه مقعد السائق حيث يتمكن من الرؤية بشكل مشوّش. فاتزيو وعناصر شرطة فيغاتا قدموا يد المعونة لزملائهم من مونتيلوزا. أشعل المحقق سيجارة والتفت نحو مصنع الكيميائيات. أذهله ذلك الخراب. قرر أنّه سيعود في يوم من الأيام لالتقاط الصور وإرسالها إلى ليفيا. سيشرح، بوساطة صور كهذه، أشياء عن نفسه وأرضه لا تزال المرأة عاجزةً عن فهمها.

رأى سيارة القاضي تصل ويترجل منها لو بيانكو بحالٍ من الهياج.

"هل حقّاً الميت هو المهندس لوباريللو؟".

لاحظ أن جاكوموتزي لم يضيّع الوقت.

"يبدو الأمر كذلك".

انضمّ القاضي إلى فريق البحث الجنائي وبدأ يتحدث بحماسة كبيرة إلى جاكوموتزي والدكتور باسكوانو الذي أخرج من حقيبته زجاجة كحول وراح يطهّر يديه. بعد وقتٍ كافٍ لأن تشوي أشعة الشمس مونتالبانو صعد فريق البحث الجنائي إلى السيارة، وغادروا. عبروا بمحاذاته، جاكوموتزي لم يلقِ عليه التحية. سمع

مونتالبانو صفارة سيارة إسعافٍ خلفه. لقد حان دوره الآن، عليه أن يقول ويفعل، لا مكان للمثاليات. نفض عنه الخدر الذي سرى فيه وتوجه نحو السيارة، حيث الميت. في منتصف الطريق أوقفه القاضي.

"يمكن إزالة الجثّة. كلّما أسرعنا يكون أفضل نظراً إلى شهرة المهندس المسكين. وأنتم ستطلعونني يومياً على تطوّر التحقيقات بطبيعة الحال".

صمت للحظات، وللتخفيف من النبرة الآمرة للكلمات قال حالاً:

"اتصل بي عندما ترى الأمر مناسباً".

صمت مجدداً، ثم تابع:

"دوماً خلال أوقات العمل في المكتب، ضع هذا في حسبانك".

ابتعد. خلال أوقات العمل في المكتب وليس في المنزل. في المنزل كان معروفاً أنّ القاضي لو بيانكو قد كرّس نفسه لصياغة عمل موسوعي شاق؛ حياة وإنجازات رينالدو وأنطونيو لو بيانكو، الأستاذين المحلّفين في جامعة جيرجينتي في زمن الملك مارتينو الأصغر (١٤٠٢-١٤٠٩) واللذين يعتقد أنهما كانا من أجداده رغم تجاهلهما لوقت طويل.

"كيف مات؟".

"انظر بنفسك" أجاب الدكتور باسكوانو وتنحّى جانباً.

حشر مونتالبانو رأسه داخل السيارة التي بدت كالفرن (محرقة للجثث بشكل أدق)، نظر إلى الجثة أولاً فخطر المفوّض في باله حالاً.مكتبة سُر مَن قرأ

لم يفكّر في المفوّض لأنّ من عادته رفع تصوراته مع بداية كلّ تحقيق إلى رئيسه الهرمي، ولكن لأنهما فقط، هو والمفوض العجوز بورلاندو، صديقه، تحدثا قبل عشرة أيام عن كتاب "تاريخ الموت في الغرب" للمؤرخ الفرنسي فيليب آريس، والذي قرأه كلاهما. كان المفوّض مصرّاً أنّ لكلّ حالة موت، حتى أكثرها بؤساً، قدسيتها. مونتالبانو كان يكرر، وهو مقتنع بذلك، أنه لا يمكن التماس شيء من القدسية في أي حالة موت، بما فيها موت البابا نفسه.

تمنّى لو أنّ السيد المفوض يكون بجواره الآن ويشاهد ما يراه هو. لطالما عرف المهندس بأناقته، واعتنائه بأدق تفاصيل جسده، وها هو الآن دون ربطة العنق، بقميص أشعث، نظّارة متدلية على وجهه، سترة بقبّة مرفوعة عشوائياً حتى المنتصف، والجوارب تهدلت حتى غطّت حذاءه. لكن أكثر ما لفت نظر المحقق كان البنطال المُنزَل حتى الركبتين، والملابس الداخلية حيث بقي الكلسون داخل البنطال، والقميص الداخلي مشموراً حتى منتصف الصدر.

عضوه كان مكشوفاً بطريقة مذهلة، فاحشة، ثخيناً، مشعراً، في تناقض تام مع بقية تفاصيل الجسد الدقيقة.

"لكن كيف مات؟" كرّر سؤاله للطبيب وهو يخرج من السيارة.

"ألا يبدو الأمر واضحاً؟" أجاب الطبيب بفظاظة، وتابع: "أنت تعلم أنّ المهندس أجرى جراحةً في قلبه على يد جرّاح كبير في لندن، أليس كذلك؟".

"في الحقيقة لم أكن أعرف ذلك. شاهدته الأربعاء المنصرم على شاشة التلفاز وبدا في أتمّ صحّة".

"بدا كذلك، لكنها ليست حقيقة الأمر. تعلمون أنّ الجميع كالكلاب في السياسة، بمجرد أن يلمسوا حالة ضعف لديك ينقضّون لنهشك. يبدو أنهم في لندن زرعوا له شريانين، وكان ذلك، كما يقولون، في غاية الصعوبة".

"ومن كان يتابع حالته في مونتيلوزا؟".

"زميلي كابوانو. كان راغباً أن يبقى دوماً في أفضل هيئة".

"هل تحدثت إلى كابوانو، ماذا يقول؟".

"لا فائدة من ذلك، ما حدث هنا واضح بشكل جليّ. المهندس المسكين جاء بدافع نزوة لممارسة الجنس في هذه المنطقة. ربّما مع عاهرة غريبة، فعل ذلك وبقي هنا على هذه الحال".

لاحظ نظرات مونتالبانو التائهة.

"ألم تقتنع بذلك؟".

"لا".

"لماذا؟".

"بصراحة؛ لا أعرف. هل يمكنني الحصول على نتائج تشريح الجثة غداً؟".

"غداً؟! قبل المهندس لديّ تلك الصغيرة ابنة العشرين عاماً التي اغتُصبت في كوخ ثمّ عثر عليها بعد عشرة أيام والكلاب تنهشها. ثمّ سأتابع قصة فوفو غريكو الذي قُطع لسانه وخصيتاه وعُلّق على شجرةٍ ليَموت، ومن ثمّ تأتي...".

قاطع مونتالبانو لائحته المروّعة:

"باسكوانو، لنتحدث بوضوح. متى أحصل على النتائج؟".

"بعد غد، إن لم يجعلوني في هذه الأثناء أركض يميناً ويساراً لمعاينة موتى آخرين".

تودّعا. نادى مونتالبانو الرقيب ورجاله وأبلغهم ما يتوجب عليهم فعله، ومتى يستطيعون نقل الجثة في سيارة الإسعاف. أمر غاللو أن يوصله إلى مركز الشرطة.

"ثمّ تعود لنقل الآخرين. وإن أسرعت سأنزع جلدك عن عظمك".

***

وقّع بينو وسارو على المحضر. فيه تمّ توصيفٌ دقيق لكلّ

تحركاتهم، قبل وبعد اكتشاف الجثّة. بقي المحضر يفتقد لحقيقتين مهمّتين لكون عاملَي النظافة كانا شديدي الحذر مع القانون؛ الحقيقة الأولى أنهما تعرفا إلى هوية الميت حالاً، والثانية أنهما سارعا لإبلاغ المحامي ريتزو. أثناء عودتهما إلى المنزل بدا بينو ساهِماً، وسارو بين حين وآخر يتلمّس الجيب التي وضع فيها القلادة.

لمدة أربع وعشرين ساعة على الأقل لن يستجدّ شيء. عاد مونتالبانو عند العصر إلى الفيلا الصغيرة، ارتمى على السرير، وغطس في النوم لثلاث ساعات. ثم نهض، وبما أنّ البحر في منتصف أيلول يكون شديد الهدوء فقد سبح لوقت طويل. عاد إلى الفيلا. أعدّ لنفسه طبقاً من السباغيتّي مع لبّ قنفذ البحر، وشغّل التلفاز. جميع نشرات الأخبار المحلية كانت تتحدث عن موت المهندس مشيدةً به، وبين حين وآخر يظهر بعض السياسيين بوجوههم المتجهمة يستذكرون فضائل المتوفّى، والمشاكل التي استتبعها اختفاؤه. لكنّ أحداً منهم، ولا حتى نشرة أخبار المعارضة، غامر بالقول أين وبأيّ حالٍ توفي الراحل لوباريللو.

-٣-

أمضى سارو وتانا ليلةً عصيبة. ما من شكّ في أنّ سارو عثر على لقية في ظرف مماثل لما يحدث في القصص الخرافية؛ حيث يعثر الرعاة المعدمون على جرارٍ مليئة بالقطع الذهبية أو نعاجٍ مغطاة بالألماس. لكن الأمر هنا مختلف عن اللقى الأثرية؛ فالقلادة، المصنوعة حديثاً، ضاعت قبل يوم واحد، وهذا لا شكّ فيه، وتقديرها بالعين المجردة يوحي أنها تساوي ثروة. هل يعقل ألا يجيء من يقول إنها ملكه؟ كانا جالسين إلى طاولة المطبخ، التلفاز يعمل والنافذة مفتوحة على مصراعيها كما كل مساء، تجنّباً لأي تغيير طفيف يتيح للجيران بدء النميمة. عارضت تانا حالاً النيّة التي أفصح عنها زوجها بالذهاب في اليوم نفسه لبيعها حالما يفتح متجر صاغة الإخوة سيراكوزا.

"قبل كل شيء" قالت: "نحن، أنا وأنتَ، أناسٌ شرفاء. لذا

لا يمكن أن نذهب لبيع شيء ليس ملكنا".

"وماذا تريدين أن نفعل؟ أذهب إلى رئيس العمّال وأخبره أنني عثرت على قلادة، أعطيه إياها ليعيدها إلى صاحبها حين يجيء للمطالبة بها؟ سيبيعها لحسابه الشخصي بعد عشر دقائق ذلك الديوث الكبير بيكوريللا".

"نستطيع التصرف بطريقة أخرى. نحتفظ بالقلادة في البيت ونخبر بيكوريللا، وإن جاء أحد لاستعادتها نعطيه إياها".

"وماذا نكسب بذلك؟".

"النسبة المئوية التي ينص أن يحصل عليها من يعثر على شيء ما. كم تساوي برأيك؟".

"عشرين مليوناً تقريباً" أجاب سارو، وبدا له أنّه بالغ في الأمر. "لنقل إن مليونين وصلت لأيدينا، هل تشرحين لي كيف سندفع تكاليف علاج نينيه كلها بمليونين فقط؟".

تجادلا حتى الفجر، وقطعا الجدال فقط لأنه كان على سارو الذهاب إلى المشقّة. غير أنهما توصّلا إلى اتفاق مؤقت يحفظ صدقهما جزئياً؛ سيحتفظان بالقلادة دون أن يتفوّها بكلمة عنها لأحد، وبعد مضيّ أسبوع، إن لم يظهر من يقول إنها ملكه، سيذهبان لرهنها. حين ذهب سارو، راضياً ومستعداً للمغادرة، لتقبيل ابنه، حظي بالمفاجأة؛ كان نينيه نائماً بعمق وهدوء كأنّه

أدرك أنّ والده وجد طريقةً تساعده على استعادة صحته.

***

ربّما لم يستطع بينو النوم تلك الليلة. كان رأسه يتخبط. هو محبّ للمسرح، ولطالما رغب في أن يعمل ممثّلاً، غير أن مسارح الهواة في فيغاتا ومحيطها تتناقص باستمرار. إنه يقرأ المسرح، وحالما يسمح له دخله الزهيد يهرع إلى المكتبة الوحيدة في مونتيلوزا لاستعارة الأعمال الكوميدية والدرامية. هو يعيش مع والدته التي تتقاضى راتباً تقاعدياً صغيراً ولا مشكلة حقيقة في حصولهما على القوت. جعلته والدته يعيد حكاية العثور على الميت ثلاث مرات، مرغمة إياه على وصف التفاصيل بدقة ووضوح. فعلت ذلك لتتمكن في اليوم التالي من إعادة رواية القصّة لصديقاتها في الكنيسة وفي السوق، لتتفاخر بمعرفتها كلّ ذلك وبأنّ ابنها البارع كان خلف قصّة كهذه. أخيراً، عند منتصف الليل تقريباً، ذهبت لتهتمّ بشؤونها بعدما استلقى بينو الصغير في السرير. لم يستطع النوم، ثمّة ما جعله يتقلّب ويتقلّب تحت الملاءة يتخبّط رأسه بالأفكار. رأسٌ متفلسف، قال لنفسه. وبعد مرور ساعتين عجز فيهما عن إغلاق عينيه بات مقتنعاً منطقياً أنه لم يكن ثمة شيء، هي نفسها ليلة عيد الميلاد. نهض، اغتسل، وذهب للجلوس إلى المكتب الصغير الموجود في غرفة النوم.

أعاد القصّة ذاتها التي رواها لأمه، كل شيء سار على ما يرام، استعاد كلّ شيء. كان الطنين متواصلاً في أعماق رأسه، أشبه بلعبة "ماء ماء، نار نار"[١]. مع الانتهاء من استعادة كلّ ما قاله بدا صوت الطنين كأنه يقول: ماء، ماء. هو الاضطراب الذي تولّد من أشياء لم تعرفها الأم، فهو في الحقيقة لم يخبرها بما اتفق مع سارو على التكتم عليه أمام مونتالبانو؛ تعرّفهما الفوري إلى جثّة الميت، ومكالمتهما الهاتفية مع المحامي ريتزو. هنا صار الطنين مرتفعاً جداً، صارخاً: نار، نار! أخذ ورقةً وقلماً وكتب الحوار الذي دار مع المحامي كلمةً كلمة. أعاد قراءته مجرياً عليه بعض التصحيحات. أجهد ذاكرته لإتمام الكتابة، كما في نصّ مسرحيّ، مع بعض الفواصل أحياناً. حين بات جاهزاً أمامه، أعاد قراءة النسخة النهائية. احتوى الحوار على بعض الأخطاء لكن الوقت كان تأخر كثيراً وبات عليه الذهاب إلى سبليندور.

***

قراءة مونتالبانو لصحيفتين صقليّتين، واحدة طبعت في باليرمو والأخرى في كاتانيا، قطعتها مكالمة هاتفية، قرابة العاشرة

١ "ماء ماء، نار نار": لعبة يلعبها الأطفال وتقوم على إخفاء شيء يبحث عنه أحدهم وهو معصوب العينين، فإن ابتعد عنه يصيح الأطفال ماء، وإن اقترب يصيحون نار. (م.)

صباحاً، من المفوّض الذي وصل مكتبه.

"عليّ أن أبلغكم شكراً" بدأ المفوّض.

"آها؛ حقاً؟ ممّن؟".

"من الأسقف، ومن كاهن رعيتنا. المونسنيور تيروتزي، إنه يشعر بالرضا عن تصدّقك، قالها هكذا تماماً. والذي، كما يقول، دفعك للمبادرة بمنع الصحافيين والمصورين عديمي الضمير والأخلاق من تصوير ونشر الصور المقززة للجثة".

"لكني أصدرت أوامري تلك قبل أن أعرف من يكون الميت! وكنت سأفعل ذلك مع أي أحد".

"أعلم ذلك، أخبرني جاكوموتزي بكل شيء. لكن لماذا كان عليّ أن أبوح للأسقف بهذا التفصيل عديم الأهمية؟ ليخيب أمله بك، بمسيحيتك؟ إنّه فعل خير، مثمّن جداً، ويكتسب قيمة أكبر كلّما ارتفعت مكانة من تقع عليه الصدقة، هل أشرح لك؟ أعتقد حتى أن الأسقف اقتبس من بيرانديللو[1]".

"لا!".

"بالعكس؛ نعم. لقد اقتبس من مسرحيته "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" تلك النكتة التي يقولها الأب حول أنّ المرء لا يمكن أن يبقى موصوماً إلى الأبد بتصرّف قليل النبل بعد حياة من الاستقامة بسبب خطيئةٍ عرضية. كما لو أنه يقول: لا تستطيع

---

١ لويجي بيرانديللو: روائي وكاتب مسرحي إيطالي. (م.)

أن تنقل للأجيال القادمة صورة المهندس ببنطال كان للحظات نصف مخلوع".

"والكاهن؟".

"لم يستشهد ببرانديللو لأنه يجهل وجوده أصلاً، غير أنّ التعبير الملتوي والمبطّن كان هو نفسه. وباعتباره ينتمي إلى الحزب نفسه الذي انتمى إليه لوباريللو فقد سمح لنفسه بإضافة كلمة أخرى".

"ما هي؟".

"التعقّل".

"وما علاقة التعقّل بهذه القصة؟".

"لا أعرف، أنا أنقل لك الحديث كلمة كلمة".

"هل من أخبار عن تشريح الجثة؟".

"ليس بعد. أراد باسكواني الاحتفاظ بها في الثلاجة حتى الغد لكني أقنعته بفحصها إمّا في وقت متأخر من صباح اليوم وإمّا قبل العصر. غير أنني لا أعتقد بحصولنا على أخبار من هذه الناحية".

"أعتقد ذلك أنا أيضاً" ختم المحقق.

***

استأنف مونتالبانو قراءة الصحف، وكانت المعلومات التي

تقدّمها له أقل ممّا يعرفه بالفعل عن حياة وأعاجيب المهندس لوباريللو بما فيها وفاته أخيراً. خدمته الصحف فقط في إنعاش ذاكرته؛ هو وريث سلالة من المعماريين من مونتيلوزا (جدّه مصمّم المحطة القديمة، ووالده مصمم قصر العدل). الشاب سيلفيو، وبعد تخرجه بدرجة ممتازة من معهد بوليتكنكو في ميلانو، عاد إلى البلدة لمواصلة نشاطات العائلة وتعزيزها. كاثوليكي متدين، اتبع في السياسة أفكار جدّه الذي كان من أتباع ستورتزيانو (عوض أفكار أبيه الذي كان "سكوادريستا"، وزحف إلى روما لنشر الطاعة العمياء) وقد اشتدّ عوده في FUCI، المنظّمة التي ضمّت الكاثوليكيين الجامعيين الشباب وخلقت شبكة متينة من الصداقات[1]. منذ ذلك الحين ظهر سيلفيو لوباريللو في كل مظاهرة أو احتفال أو لقاء جوار كبار الحزبيين، ولكن متراجعاً دوماً خطوةً إلى الخلف مع ابتسامةٍ فاترة، ما يعني أنه موجود باختياره وليس بسبب موقعه القيادي. رشّح رسمياً أكثر من مرة للانتخابات السياسية أو الإدارية، وفي كلّ مرّة تملّص من المهمّة بدوافع

---

١ في ١٩١٩ أسهم لويجي ستورتزيانو بتأسيس "حزب الشعب الإيطالي" الكاثوليكي المحافظ. لكنّه نفي عن إيطاليا مع صعود الفاشية وتأسيس موسوليني فرقاً من المحاربين القدامى أطلق عليهم اسم "سكوادريستي" ساهموا بالمظاهرات التي عرفت باسم "الزحف إلى روما" مستخدمين العنف لمحاربة الشيوعيين والاشتراكيين. (م).

في غاية النبل، الأمر الذي سرعان ما عرّف الجمهور إليه، إذ أثارهم ذلك التواضع وتلك الخدمة في الظلّ وبصمت؛ الصفات الخاصّة بالكاثوليكي. في الظلّ وبصمت خدم لما يقرب العشرين عاماً، إلى يومٍ جعل نفسه فيه، أولاً وقبل كلّ شيء، مع شدّة كلّ ما رآه في الظّل بعينيه الثاقبتين، خادماً للنائب كوسومانو. هكذا ارتدى السيناتور بورتولانو ونائبه تريكومي زيّ النبالة (لكن الصحف أسمتهما "الأخوة الأصدقاء"، "الأتباع المخلصين"). باختصار، الحزب كلّه، في مونتيلوزا والمقاطعة، صار رهن يديه، وكذلك ثمانون في المئة من مجمل العقود العامّة والخاصّة. حتى الهزّة التي أثارها بعض قضاة ميلانو، والتي أثارت استياء الطبقة السياسية الممسكة بزمام السلطة منذ خمسين عاماً، لم تمسّه. بل على العكس من ذلك، فقد منحته، بعد بقائه في الصفوف الخلفيّة طوال الوقت، فرصة الخروج إلى العلن ليكون في دائرة الضوء ثائراً ضد فساد رفاقه في الحزب. في غضون عام، أو أقل بقليل، صار، وبتأييد شعبي، سكرتيراً إقليمياً، وحاملَ لواء التجديد. للأسف، ثلاثة أيام فقط مرّت بين لحظة الانتصار وموته. إحدى الصحف أعربت عن أسفها أنّ شخصية بمثل هذه الرفعة والمكانة البرّاقة لم يمنحها القدر الشرير الوقت الكافي لإعادة الحزب إلى مجده القديم. كِلتا الصحيفتين أجمعتا في ذكر

مناقبه على كرمه الكبير ونقاء روحه، استعداده لمدّ يد العون في كلّ مناسبة مؤلمة للأصدقاء والأعداء دون تمييز من جانبه. بشيء من الارتعاش تذكر مونتالبانو مقطع فيديو شاهده في العام الفائت، وقد بثّه تلفزيون محلي؛ كان المهندس يفتتح دار أيتام في بيلفي، مسقط رأس جدّه، وقد حمّله اسم جده نفسه. قرابة عشرين طفلاً صغيراً يرتدون الزي نفسه راحوا يغنون أغنية شكر للمهندس الذي أصغى إليهم متأثراً. كلمات تلك الأغنية محفورة في ذاكرة المحقق: "كم هو طيب، كم هو جميل، المهندس لوباريللو".

***

إضافةً للتستر على ملابسات الوفاة، التزمت الصحف الصمت حيال الشائعات الأقل شعبية التي تمّ تداولها منذ سنوات والمتعلقة بالمهندس. كانت ثمّة أحاديث عن عقود مزوّرة، رشاوى بالمليارات، ضغوطات بلغت حدّ الابتزاز. ودوماً، في هذه المسائل، يرد اسم المحامي ريتزو، أولاً كأمين للسر، ثمّ كرجل موثوق، وحتى كنائب عن لوباريللو. غير أنّ الأمر دائماً كان يمضي كشائعات وأشياء تذروها الرياح. قيل أيضاً إنه ربّما كان ريتزو جسر وصل بين المهندس والمافيا، وفي هذا الشأن بالذات أتيحت للمحقق فرصة الاطلاع على تقرير سرّي يتحدث

عن تهريب عملات وغسيل أموال. كانت شكوكاً بالطبع ليست أكثر، إذ لم يوجد ما يؤكدها قطّ، فكلّ طلب للتفويض بالتحقيق كان يضيع في متاهة قصر العدل، ذاك الذي صمّمه وبناه والد المهندس.

***

عند ساعة الغداء اتصل بقسم الشرطة في مونتيلوزا طالباً الحديث إلى المفتشة فيرّارا. هي ابنة صديق له من أيام الدراسة تزوج صغيراً. فتاة جذّابة ومرحة، وبات يفهم لماذا، بين حين وآخر، تحاول معه.

"آنّا؟ أنا أحتاجكِ".

"ولا تخبرني!".

"أتملكين بعض وقت الفراغ عصراً؟".

"سأملكه، عزيزي المحقق. أنا تحت تصرفك دوماً، نهاراً وليلاً، بناءً على أوامرك، أو إن شئت، بناءً على رغباتك".

"إذاً سأجيء لأخذك من منزلك في مونتيلوزا قرابة الساعة الثالثة".

"تسعدني جداً".

"إيه، اسمعي، آنّا، ارتدي ملابس أنثوية".

"الكعب العالي جداً مع أربطة على الفخذ؟".

"أردت القول ببساطة، لا تحضري بالزيّ العسكري".

***

في الموعد المحدد، مع التزميرة الثانية، خرجت آنّا ترتدي تنورة وقميصاً. لم تطرح أيّ أسئلة، فقط قبّلت مونتالبانو على خده. عندما اجتازت السيارة الممرّ الأول من الثلاثة المؤدية من المقاطعة إلى المنارة، فقط عندئذٍ تحدّثت:

"إن كنت راغباً في مضاجعتي خذني إلى بيتك، لا أحبّ فعل ذلك هنا".

في المنارة كانت هناك سيارتان أو ثلاث فقط، لكن الأشخاص الذين يشغلونها لم يكونوا من ضمن جولة جيجيه غوللوتّا الليلية. إنهم طلاب وطالبات، ثنائيات من الطبقة الوسطى لم يعثروا على مكان آخر. عبر مونتالبانو المسار حتى نهايته، فرمل حيث راحت العجلات الأمامية تنغرس فعلاً في الرمل. هناك كانت الأجمة الضخمة التي عثر جوارها على سيارة الـBMW العائدة للمهندس والتي ما تزال هناك، ولا إمكانية للوصول إليها إلا عبر هذا المسار.

"هل هو المكان الذي عثروا فيه عليه؟"، سألت آنّا.

"نعم".

"عمَّ تبحث؟".

"حتى أنا لا أعرف. لننزل".

مشيا باتجاه الشاطئ. أحاط مونتالبانو بخصرها وجذبها إليه فأسندت رأسها إلى كتفه مبتسمةً. فهمت الآن لماذا دعاها المحقق؛ كل شيء كان مسرحية، كزوجين سيبدوان مجرّد حبيبين أو عاشقين وجدا في المنارة مكاناً ملائماً لخلوتهما، مجهولَي الهويّة، ولن يثيرا فضول أحد.

"يا له من طيّب" فكّرت: "إنه غير مكترث بما أشعر به تجاهه".

في لحظة معينة توقف مونتالبانو وظهره إلى البحر. البقعة أمامهما، على مسافة مئة متر كخط نظر. ما من مجال للشك؛ الـBMW لم تأتِ عبر الممرات بل من ناحية الشاطئ، وتوقفت بعدما استدارت باتجاه البقعة ومقدمتها باتجاه المصنع القديم، يمكن القول بوضعية معاكسة تماماً للوضعية المفروضة على جميع السيارات القادمة من طريق المقاطعة لعدم وجود مساحة كافية تسمح بالاستدارة. من يريد العودة إلى طريق المقاطعة لن يكون من خيار أمامه غير الرجوع إلى الوراء على طول المسار. مشى لمسافة أخرى، دوماً وهو يحتضن خصر آنّا ورأسه للأسفل. لم يعثر على أثر للعجلات، لقد محى البحر كلّ شيء.

"ماذا سنفعل الآن؟".

"بدايةً سأتصل بفاتزيو، ثمّ أصحبكِ إلى المنزل".

”عزيزي المحقق، هل تسمح أن أخبرك شيئاً بمنتهى الصدق؟“.

”طبعاً“.

”أنتَ أحمق“.

-٤-

"أيها المحقق، أنا باسكوانو. هل لك أن تشرح لي أين تمضي بحق الجحيم؟ أبحث عنك منذ ثلاث ساعات، وفي مركز الشرطة لا يعرفون شيئاً".

"أنت غاضب مني دكتور؟".

"منكَ؟ قل من خلائق الكون كلها".

"ماذا فعلوا؟".

"لقد أرغموني أن أمنح لوباريللو الأولوية، تماماً كحاله حين كان على قيد الحياة. حتى بعد الموت مفروض على ذلك الرجل أن يبقى متقدماً على الآخرين؟ أيملك مقعداً في الصف الأمامي من المقبرة ربّما؟".

"هل تريد إبلاغي شيئاً؟".

"المعطيات الأولية سأرسلها لكم مكتوبة. لا شيء على الإطلاق؛ طيّب الذِّكر توفي لأسباب طبيعية".

"ماذا تعني؟".

"إن تحدّثتُ بعبارات غير علمية فقلبه، حرفياً، انفجر، وإلا لبقي بخير. أتعلم؟ لم يكن هناك ما يعمل سوى المضخة، وهذا ما تسبب بتلفها، مع أنهم حاولوا إصلاحها بأفضل الطرق".

"هل من علامات أخرى على الجسد؟".

"مثل ماذا؟".

"أوه، لا أعرف. كدمات، آثار حقن".

"قلت لكم: لا شيء. تعرف أنني لستُ ابن اليوم؟ وللمزيد فقد طلبتُ، وتمّ الأمر، فحضر تشريح الجثة زميلي كابوانو، طبيبه المعالج".

"لقد كشفت على أكتافه دكتور أليس كذلك؟".

"ما الذي تقوله؟".

"إنها حماقة مني، اعذرني. هل كان يعاني من أمراض أخرى؟".

"لماذا تعود إلى البداية مجدداً؟ لم يكن يعاني من شيء. ارتفاع بسيط في ضغط الدم فقط وكان يعالجه بمدرّ البول عبر تناوله حبّةً يومَي الخميس والأحد في الصباح الباكر".

"إذاً يوم الأحد، عندما توفي، كان قد تناولها".

"ماذا تقصد؟ ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟ هل تسبب الحبوب المدرة للبول التسمم؟ أتظنّ أنك ما تزال في زمن

بورجيا[1]؟ أم أنك تقرأ القصص البوليسية الرديئة؟ لو أنه تسمّم كنتُ سألاحظ، أليس كذلك؟".

"هل كان قد تناول العشاء؟".

"لا".

"تستطيع إخباري في أيّ ساعة توفّي؟".

"بهذا السؤال أنت تدفعني للجنون. تسمحون لأنفسكم التأثر بالأفلام الأميركية حيث بمجرد أن يسأل الشرطي عن وقت وقوع الجريمة يجيب قاضي التحقيق بأن القاتل أنهى عمله في الساعة السادسة عصراً والثانية والثلاثين دقيقة، ثانية واحدة أكثر أو أقل، وقبل ستة وثلاثين يوماً. أنت رأيت الجثة أيضاً ولم تكن قد تجمدت بعد، أليس كذلك؟ وقد شعرتَ بالحرارة داخل السيارة أليس كذلك أيضاً؟".

"فإذاً؟".

"إذاً المرحوم قد رحل ما بين الساعة السابعة عصراً والعاشرة ليلاً من اليوم السابق للعثور عليه".

"لا شيء آخر؟".

"لا شيء آخر. آه، نسيت؛ صحيح أنّ المهندس مات لكنّه نجح بفعلها، لقد أنهى المضاجعة. بقايا السائل المنوي كانت

١ بورجيا (Borgia): عائلة إيطالية من أصول إسبانية كانت ذات نفوذ في إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. (م.)

موجودة على الأجزاء السفلية".

***

"سيدي المفوض، أنا مونتالبانو. أودّ إبلاغكم بأنني للتوّ أنهيت مكالمتي مع الدكتور باسكوانو. لقد انتهى من تشريح الجثّة".

"مونتالبانو، وفّر جهودك. أعرف كلّ شيء، لقد هاتفني جاكوموتزي، الذي كان حاضراً، قرابة الساعة الثانية وأبلغني كلّ المعلومات. كم هو أمر جيّد".

"اعذرني، لم أفهم".

"يبدو لي جيداً أنّ شخصاً في مقاطعتنا العظيمة هذه يقرر أن يموت ميتةً طبيعية، وبذلك يكون قدوة حسنة. ألا ترى ذلك؟ حالتا وفاة أو ثلاث كحالة المهندس يمكنها أن تعيدنا إلى المسار الصحيح مع بقية إيطاليا. هل تحدثت إلى لو بيانكو؟".

"حتى الآن لا".

"افعل ذلك حالاً. أبلغه أنه ليس ثمة مشكلات أخرى من جانبنا. بإمكانهم إقامة الجنازة متى يشاؤون؛ إذا ارتأى القاضي أن يمنحهم التصريح الأمني. وما من شيء آخر. اسمع مونتالبانو، نسيت أن أخبرك هذا الصباح. لقد ابتكرت زوجتي

وصفةً مذهلةً للأخطبوط. هل يناسبك مساء يوم الجمعة؟".

***

"مونتالبانو؟ أنا لو بيانكو. أودّ إبلاغكم بالمستجدّات. مع بداية العصر تلقيت مكالمةً من الدكتور جاكوموتزي".

"يا لها من إمكانيات مهدورة!" فكّر مونتالبانو بسرعة البرق: "في أزمنة أخرى كان جاكوموتزي ليكون منادياً رائعاً في الساحات، واحداً من أولئك الذين يتجولون مع الطبل".

"أبلغني أنّ تشريح الجثة لم يكشف عن أيّ أمر غير طبيعي" تابع القاضي: "لذا فقد أعطيتُ تصريحاً بالدفن. هل لديكم ما يخالف ذلك؟".

"لا، أبداً".

"أستطيع إذاً اعتبار القضية مغلقة؟".

"هل يمكنك أن تمنحني من الوقت يومين إضافيين؟".

سمع، فعلياً سمع، أجراس إنذار تدق في رأس محاوره.

"لماذا مونتالبانو؟ هل هناك شيء؟".

"لا شيء أيها القاضي، لا شيء على الإطلاق".

"فإذاً بحق الله؟ أقرّ لك أيها المحقق، لا صعوبة لديّ في الأمر إطلاقاً لكن أنا، كما المدعي العام، وكذلك المحافظ ورئيس الشرطة، تلقينا طلبات ملحّة لإغلاق هذه القصّة

بأسرع وقت ممكن. طبعاً لا شيء مخالف للقانون. الصلاة الواجبة من قبل أفراد عائلته وأصدقائه ورفاقه في الحزب من شأنها أن تدفع هذه القصة السيئة إلى النسيان بسرعة وتساعد أن ينساها الجميع. وأنا، من وجهة نظري، أوافقهم الرأي".

"أتفهم أيها القاضي، لكن ما أحتاج إليه ليس أكثر من يومين".

"لماذا؟ هلّا أعطيتني سبباً!".

عثر على إجابة، على ثغرة. ما كان طلبه ليؤخذ في الحسبان دون سبب، أو بالأحرى، اعتماداً على حدسه، وإن لم يكن يعرف كيف ولماذا فهذا سيجعل أيّ شخص في هذه اللحظة يثبت أنه أكثر خبرةً منه.

"إن أردت أن تعرف فأنا أطلب ذلك من أجل عيون الناس. لا أريد لأحد أن ينشر الأقاويل عن أننا أقفلناها سريعاً لعدم رغبتنا بالوصول إلى الحقيقة، فكما تعلمون، ولادة فكرةٍ كهذه بمنتهى السهولة".

"إن كان الأمر كذلك فأنا موافق. سأمنحك هذه الثماني وأربعين ساعة. ولكن حذارِ، ولا دقيقة واحدة أكثر من ذلك. حاول تفهّم الأمر".

***

"جيجيه؟ كيف حالك يا حلو؟ اعذرني إن أيقظتك في السادسة والنصف بعد الغداء".

"نيكة من منيوك".

"جيجيه، هل تظنه أسلوباً تتحدث به إلى ممثّل القانون، أنت أمام القانون، أم أنّك لا تستطيع إلّا الخراء في سروالك؟ وبمناسبة المنيكة هل صحيح أنك تفعلها مع زنجي أبو أربعين؟".

"أربعين ماذا؟".

"طول قضيبه".

"لا تكن سافلاً. ماذا تريد؟".

"أريد التحدث إليك".

"متى؟".

"في وقت متأخر من هذا المساء. قل لي أنت أي ساعة تناسبك".

"لنجعلها في منتصف الليل".

"أين؟".

"المكان المعتاد، في بونتاسيكّا".

"أقبّل فمَك الصغير الجميل جيجيه".

***

"سيد مونتالبانو؟ أنا المحافظ سكواتريتو. أبلغني القاضي لو بيانكو توّاً أنك طلبت، لم أعد أذكر جيداً، أربعاً وعشرين، أو ثماني وأربعين ساعةً، لإغلاق قضيّة المهندس المسكين. السيد جاكوموتزي، الذي يتلطّف دائماً ويطلعني على التطورات، أبلغني أنّ تشريح الجثة أثبت بما لا لبس فيه أنّ لوباريللو توفي لأسباب طبيعية. حاشا أن أتدخل ولو بمجرد فكرة، أو أقل من ذلك، كما أنه لا دافع لدي، لكنني أسألكم فقط: لماذا هذا الطلب؟".

"طلبي، سيدي المحافظ، كما سبق أن أخبرت لو بيانكو، وأكرره لكم، إنّما تمليه عليّ الرغبة بالشفافية من أجل قطع الطريق على أيّ تلميحات خبيثة حول نيّةٍ محتملة لدى الشرطة بعدم توضيح ملابسات الحقيقة، وأرشفتها دون إجراء التحقيقات الواجبة. هذا كل شيء".

أعلن المحافظ عن رضاه عن الإجابة. ومن ناحية أخرى فإنّ مونتالبانو اختار بعناية كلمتَي (أكرر، وتوضيح) وكذلك (شفافية) التي كانت دوماً جزءاً من القاموس اللغوي للمحافظ.

***

"أنا آنّا، آسفة إن كنت أزعجكَ".

"لماذا تتحدثين هكذا؟ هل أنت مصابة بالرشح؟".

"لا، أنا في المكتب، أتصل بكَ من الموبايل ولا أريد أن يسمعوني".

"قولي".

"اتصل جاكوموتزي برئيسي وقال له إنك ما تزال غير راغب في إغلاق قضية لوباريللو. رئيسي أجابه بأنك أحمق كالمعتاد، وهو رأي أوافقه فيه، إضافة إلى أنه أتيح لي أن أعبر لك عنه قبل بضع ساعات".

"تهاتفينني من أجل هذا؟ شكراً على التأكيد".

"أيها المحقق، يجب أن أخبرك أمراً عرفته بمجرد عودتي إلى هنا بعد أن تركتك".

"أنا غارق في الخراء حتى رقبتي آنّا. إلى الغد".

"ليس مضيعةً للوقت. إنه أمر يهمّك".

"انظري، أنا أنهي عملي في الواحدة. في الواحدة والنصف هذه المساء أكون متفرغاً. إن كنتِ تستطيعين التحدث الآن يكون الأمر جيداً".

"الآن لا أستطيع. أجيء إلى بيتك في الساعة الثانية".

"الليلة؟".

"أجل، وإن لم تكن هناك سأنتظر".

***

"برونتو، حبيبي؟ ليفيا أنا. آسفة لاتصالي بك في المكتب".

"أنت تستطيعين الاتصال أين ومتى شئت. هل هناك شيء؟".

"لا شيء مهم. لقد قرأت للتو عن موت رجل سياسة من منطقتك. هو مجرّد خبر يقول إن المحقق مونتالبانو مكلّف بإجراء تحقيقات دقيقة حول ملابسات الوفاة".

"صحيح".

"هل تسبب لك هذه الوفاة المتاعب؟".

"ليس كثيراً".

"إذاً لا شيء يتغيّر؟ ستأتي لرؤيتي السبت المقبل؟ ولن تفاجئني بمفاجآت سيئة؟".

"مثل؟".

"المكالمات الخرقاء التي تخبرني فيها أنّ التحقيق يشهد تحوّلاً وعليّ أن أنتظر، وأنك لا تعرف متى ينتهي وربّما يكون الأفضل التأجيل لمدة أسبوع. لقد سبق أن فعلتَ ذلك، وأكثر من مرة".

"لا تقلقي، هذه المرّة سأجيء".

***

"سيد منوتالبانو؟ معك الأب أركانجيلو بالدوفينو، سكرتير

نيافة المطران".

"تشرفنا. تفضّل أبانا".

"لقد علم المطران، وبشيء من العجب، لنتفق على ذلك، بخبر اعتقادكم أنه من المناسب إطالة أمد التحقيقات حول الرحيل المؤلم والمؤسف للمهندس لوباريللو. فهل هذا الخبر صحيح؟".

أجاب بأنه صحيح، وللمرة الثالثة أعاد مونتالبانو شرح الدوافع لهذا الأسلوب في العمل. بدا أنّ الأب بالدوفينو اقتنع بما سمع لكنّه رجا المحقق أن يفعل ذلك بسرعة: "لمنع التكهنات الدنيئة وتجنيب الأسرة المكلومة مزيداً من العذاب".

***

"المحقق مونتالبانو؟ يحدثك المهندس لوباريللو".

"اللعنة، ألم تكن ميتاً؟".

كادت النكتة القذرة تفلت من مونتالبانو، لكنه لجم نفسه في اللحظة المناسبة.

"أنا الابن" تابع الآخر بصوت شديد التهذيب والرقي ومن دون أثر لأي لكنة: "اسمي ستيفانو. لديّ توجيه لسؤال حضرتكم طلباً قد يبدو غير اعتيادي بالنسبة إليكم. أنا

أهاتفكم نيابةً عن أمّي".

"بكل سرور، إن كنت أستطيع".

"أمّي تودّ لقاءكم".

"ما الغريب أيها المهندس؟ لقد وعدتُ نفسي أن أطلب لقاء السيدة في أحد هذه الأيام".

"الحقيقة، سيدي المحقق، أنّ أمّي ترغب في رؤيتك يوم غد على أبعد تقدير".

"يا إلهي. هذه الأيام، صدّقني، لا أملك دقيقة واحدة، وأنتم كذلك كما أظن".

"يمكننا إيجاد عشر دقائق، لا تقلق. هل تناسبك الساعة الخامسة عصر يوم غد؟".

***

"مونتالبانو، أعرف أنني جعلتك تنتظر، لكن كنت...".

"في مملكتك، في المرحاض".

"هيا، ماذا تريد؟".

"أريد إبلاغك بأمر خطير. لقد هاتفني البابا من الفاتيكان للتو وهو حانق جداً عليك".

"ماذا تقول؟".

"أجل، إنه غاضب لأنه الشخص الوحيد في العالم الذي لم

يحصل على نتائج تشريح جثة لوباريللو. يشعر أنه تمّ تجاهله، ولديه نيّة لعزلك، هو جعلني أفهم هذا. أنت في ورطة".

"مونتالبا، لقد فقدتَ عقلك تماماً".

"هذا تقييمك لي؟".

"طبعاً".

"هل تلعق مؤخرات الناس بسبب الطموح، أم هي طبيعتك؟".

وقاحة الإجابة جعلت الآخر في حال ذهول.

"اسمع، هل انتهيت من فحص الملابس التي كان يرتديها المهندس؟ هل عثرت على شيء؟".

"لقد عثرنا على ذاك الذي كان متوقعاً بالطبع. بقايا السائل المنوي على الكلسون وعلى بنطلونه".

"وفي السيارة؟".

"ما زلنا نفحصها".

"شكراً. ارجع إلى الخراء".

***

"المحقق؟ أحدثك من كشك على طريق المقاطعة بالقرب من المصنع القديم. لقد قمتُ بما طلبته مني".

"أخبرني فاتزو".

"لقد كنتَ محقاً تماماً. سيارة لوباريللو الـBMW جاءت من مونتيلوزا وليس من فيغاتا".

"هل أنت متأكد؟".

"الشاطئ من جانب فيغاتا تقطعه كتل أسمنتية لا يمكن العبور من خلالها، إلا إن كان قد طار".

"هل اكتشفت المسار الذي ربّما يكون قد سلكه؟".

"أجل، لكنه شخص مجنون".

"هلا فسّرت بشكل أفضل. لماذا؟".

"لأنه من مونتيلوزا باتجاه فيغاتا ثمّة العشرات والعشرات من الطرق والممرات التي كان يستطيع أن يسلكها دون أن يلاحظه أحد. وعند نقطة محددة، للوصول إلى المنارة، كان على سيارة المهندس أن تعبر مجرى النهر الجاف".

"مجرى النهر؟ هذا مستحيل".

"لقد فعلتُ ذلك، وبالتالي يمكن لشخص آخر أن يكون قد فعلها. إنه جاف تماماً. غير أنّ نظام التعليق في سيارتي تعطّل، وبما أنك لا تريديني أن أستعمل سيارة الخدمة، سألمس...".

"سأدفع لك لإصلاحها. هل هناك شيء آخر؟".

"نعم. بمجرد الخروج من مجرى النهر والانطلاق على الرمال، تركت عجلات الـBMW آثارها. إن أبلغنا السيد

جاكوموتزي حالاً يمكننا الحصول على القالب لرفع الآثار".
"اتركه يضاجعك، جاكوموتزي".
"كما تأمرون. هل تريد شيئاً آخر؟".
"لا، ارجع فاتزيو. شكراً".

- ٥ -

شاطئ بو نتاسيكّا عبارة عن شريط من الرمل الطينيّ، قريباً من تلّ كلسيّ أبيض، وفي تلك الساعة كان مهجوراً. حين وصل المحقق كان جيجيه بانتظاره يدخن سيجارة وهو متكئ إلى سيارته.

"انزل سالفو" قال لمونتالبانو: "دعنا نستمتع قليلاً بهذا الهواء المنعش".

بقيا لبعض الوقت صامتين يدخنان. ثمّ أطفأ جيجيه سيجارته وبدأ الحديث:

"سالفو، أعرف أنك ترغب في الحصول على معلومات مني. أنا على أتمّ الاستعداد، ربّما تطلب إليّ القفز".

ابتسما للذاكرة المشتركة. تعرّفا إلى بعضهما في الروضة، المدرسة الخاصّة التي تسبق المدرسة الابتدائية، والمعلمة كانت الآنسة ماريانّا، شقيقة جيجيه التي تكبره بخمس عشرة

سنة. سالفو وجيجيه كانا تلميذين كسولين يحفظان الدروس ببغائياً ما يتطلب الإعادة والتكرار مراراً. وفي بعض الأيام لم تكن الآنسة ماريانّا راضيةً عن تلك التغتغة فتبدأ الأجوبة بالتقافز، دون أي روابط منطقية. عندئذ تبدأ العذابات، إذ كان عليها أن تفهم وتعيد إيجاد الروابط المنطقية.

"كيف هي أختك؟" سأل المحقق.

"أخذتها إلى برشلونة. يوجد هناك عيادة متخصّصة بأمراض العيون يبدو أنها تصنع المعجزات. قالوا لي إنّ عينها اليمنى على الأقل يمكن أن تتعافى جزئياً".

"أبلغها تحياتي عندما تراها".

"بكل تأكيد. قلتُ لك إنني مستعد، ابدأ بطرح أسئلتك".

"كم عدد الأشخاص الذين تديرهم في المنارة؟".

"ثمانية وعشرون بين عاهرات ومثليين من مختلف الأنواع. أضف إليهم فيليبّو دي كوسمو، ومانويلي لو بيبارو، اللذين يبقيان هناك للتأكد أن لا فجور يحدث، أنت تعلم أنّ الحدّ الأدنى كافٍ وأنا أجد نفسي منحوساً".

"عيون متيقظة".

"طبعاً. هل تعلم الضرر الذي قد يلحق بي لمعرفتي بشجار أو طعنة أو جرعة زائدة؟".

"دوماً تتعامل بالمخدرات الخفيفة فقط؟".

"دائماً. الحشيش، وفي أقصى حد الكوكائين. اسأل الزبّالين إن كانوا قد عثروا على حقنة واحدة في الصباحات. اسألهم".

"أصدّقك".

"ثمّ إن جيامبالفو، رئيس شرطة الآداب، الذي يراقبني دائماً، يقول إنه يغض النظر عني فقط إن لم أتسبب بمشكلات ولم أتورط في قضايا كبيرة".

"أفهم ذلك؛ جيامبالفو قلق من أن تتسبب بإغلاق المنارة، سيخسر عندئذٍ ما تدفعه له من تحت الطاولة. ماذا تعطيه شهرياً؛ نسبة ثابتة؟ كم تدفع له؟".

ابتسم جيجيه:

"انتقلْ إلى شرطة الآداب وتعال لتعقّبي. أرغب في ذلك، هكذا أساعد بائساً مثلك يعيش على راتبه فقط ويتجول مع رقعٍ على مؤخرته".

"شكراً للطفك. حدثني الآن عن تلك الليلة".

"حسناً، كانت الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف، عندما رأت ميلّي، التي كانت تسعى لرزقها، المصابيح الأمامية لسيارة قادمة من ناحية مونتيلوزا على طول البحر متجهة بسرعة نحو المنارة، فخافت".

"ومن هي ميلّي هذه؟".

"اسمها جوزيبينا لا فولبي، مولودة في ميستريتّا، عمرها ثلاثون عاماً. فتاة حذقة".

أخذ من جيبه ورقة مطوية وقدّمها إلى مونتالبانو:

"كتبتُ هنا الأسماء والألقاب الحقيقية، والعناوين أيضاً، في حال رغبت في التحدث إليهن شخصياً".

"لماذا تقول إنّ ميلّي خافت؟".

"لأنه لا سيارة يمكنها الوصول من ذلك الجانب ما لم تنزل في مجرى النهر القادر على تكسير السيارة وتحطيمها. فكّرتْ بدايةً أنه عرضُ براعةٍ من قبل جيامبالفو، في مداهمة مباغتة. ثمّ استدركت أنها لا يمكن أن تكون شرطة الآداب، فالمداهمة لا تتم بسيارة واحدة. عندئذ خافت؛ لأنه خطر في ذهنها أن يكونوا أولئك المونتوروسيين الذين يشنون حرباً لانتزاع المنارة مني. وربّما للنجاة من إطلاق النار، ولتكون على أهبة الاستعداد للهرب في كل لحظة، راحت تحدق إلى السيارة بثبات ما أثار امتعاض زبونها. لكنها امتلكت الوقت لرؤية السيارة تنعطف وتتجه مباشرة نحو تلك البقعة القريبة وبمجرد أن صارت داخلها توقفت".

"أنت لا تقدم لي أخباراً، جيجيه".

"الرجل الذي مارس الجنس مع ميلّي أنزلها وتراجع عبر الطريق المؤدّي إلى المقاطعة. بقيت ميلّي هناك تمشي جيئة

وذهاباً بانتظار عمل آخر. إلى المكان نفسه الذي كانت فيه وصلت كارمن مع عشيق يجيء لملاقاتها كلّ يوم سبت وأحد، دوماً في التوقيت ذاته، حيث يمضيان ساعات هناك. اسم كارمن الحقيقي موجود في الورقة التي أعطيتك إياها".

"وعنوانها أيضاً؟".

"نعم. قبل أن يطفئ زبونها مصابيح سيارته استطاعت كارمن رؤية شخصين يمارسان الجنس في الـBMW".

"هل أخبرَتْكَ بما رأته بالضبط؟".

"نعم، هي مسألة ثوانٍ قليلة، لكنها رأت. ربّما لأنها كانت منذهلة، فسيارات من هذا النوع لا ترى عادةً في المنارة. المهم، الفتاة كانت في مقعد السائق؛ صحيح، نسيت أمراً، ميلّي قالت إنّ الفتاة هي من كانت تقود السيارة، ثمّ انحنت وصعدت فوق ركبتي الرجل الجالس جوارها، عبثت قليلاً بيديها في الأسفل، وهو ما لم يمكن رؤيته، ثمّ بدأت تصعد وتنزل. أو أنك أنت نسيت كيف تتم المضاجعة؟".

"لا أعتقد. لكن دعنا نجرب. عندما تنتهي من حساب ما دفعته لك، تنزل بنطالك، وتستند بيديك الجميلتين على الغطاء، وترفع مؤخرتك على التابلوه. إن نسيتُ شيئاً ذكرني. هيّا تابعْ، لا تضيّع وقتي".

"حين انتهيا فتحت الفتاة باب السيارة وخرجت، سوّت

تنورتها وأغلقت السحاب. وبدل أن يدير الرجل المحرك ويغادر بقي مكانه ورأسه ملقى للخلف. الفتاة عبرت بمحاذاة سيارة كارمن، وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت بشكل كامل أمام المصابيح الأمامية للسيارة. كانت فتاة شديدة الجمال، شقراء، وأنيقة. كانت تحمل في يدها اليسرى حقيبة كبيرة. وتوجّهت مباشرة نحو المصنع القديم".

"وهل من شيء آخر؟".

"نعم؛ مانويلي، الذي كان يقوم بجولة تفتيشية، رآها تخرج من المنارة وتغادر باتجاه طريق المقاطعة. وبما أنها لم تبدُ له، من طريقة لبسها، أنها تخصّ المنارة، استدار ليلحق بها لكن سيّارة أقلّتها ورحلت".

"توقف لحظة جيجيه؛ هل رآها مانويلي تقف رافعة إبهامها طالبةً أن يقف أحدهم وينقلها معه؟".

"ما الذي تقوله سالفو؟ أنت مولود كشرطي".

"لماذا؟".

"لأن هذه النقطة تحديداً هي ما أثارت ريبة مانويلي. أي أنّه لم يرَ الفتاة تقوم بأي إشارة، ومع ذلك وقفت السيارة. ليس هذا فحسب، بل إنّ مانويلي لاحظ كما لو أن السيارة التي كانت مسرعة كان بابها مفتوحاً عندما فرملت لتسمح لها بالصعود. لم يفكر مانويلي حتى في تسجيل رقم السيارة لعدم

وجود سبب لذلك".

"حسناً. وحول الرجل صاحب الـBMW، لوباريللو، هل يمكنك أن تخبرني أي شيء؟".

"القليل؛ كان يرتدي نظارات وسترةً لم يخلعها مطلقاً رغم المضاجعة والحر الشديد. ولكن ثمّة نقطة في رواية ميلّي لا تتقاطع مع ما حكته كارمن. ميلّي تقول إنّه عند وصول السيارة بدا لها أنّ الرجل كان يرتدي ربطة عنق أو فولاراً أسود حول رقبته، فيما تدعي كارمن أن الرجل كان يرتدي قميصاً مفتوحاً فقط. يبدو لي هذا الأمر بسيطاً، فالمهندس ربما خلع ربطة العنق أثناء المضاجعة، ربّما أزعجته".

"يخلع ربطة العنق ولا يخلع السترة؟ إنه ليس تفصيلاً تافهاً؛ جيجيه. لأنه لم يُعثَر على أي ربطة عنق أو فولار داخل السيارة".

"هذا لا يعني شيئاً، ربّما سقط على الرمال عند مغادرة الفتاة".

"كان رجال جاكوموتزي سيجدونه. إنهم لم يعثروا على شيء".

صمتا وهما يفكران.

"ربّما يوجد تفسير لما رأته ميلّي" قال جيجيه فجأة: "لم تكن ربطة عنق ولا فولاراً، بل ربما كان يضع حزام الأمان –

سيفهم ذلك لأنهم خاضوا في مجرى النهر المليء بالحجارة – وقد نزعه حين جلست الفتاة على ساقيه لأن الحزام كان ليزعجه جداً".

"ممكن".

"سالفو، لقد أخبرتك كل ما استطعت معرفته عن هذه الواقعة. وأنا أقوم بذلك لمصلحتي. لأنه لا يناسبني أنّ يأتي إلى المنارة شخصاً مهماً مثل لوباريللو ويموت فيها. العيون الآن مفتوحة على كل شيء هناك، وكلّما أنت أنهيت التحقيق مبكراً سيكون ذلك أفضل. بعد يومين سينسى الناس كل شيء ونعود جميعاً إلى أشغالنا بسلام. هل أستطيع الذهاب الآن؟ المنارة ستكون مزدحمة بشدة في هذه الساعة".

"انتظر. أنتَ ما رأيك بالموضوع؟".

"أنا؟ أنت هو الشرطي. على أي حال، ولأرضيك سأقول إنه مثير لقرفي واشمئزازي. لنفترض أن الفتاة هي عاهرة من القرية المرتفعة، غريبة. هل تريدها أن تجيء إليّ وتقول إنها لا تعرف إلى أين يأخذها لوباريللو؟".

"جيجيه. أنت تعرف ما هو الانحراف؟".

"هل جئتَ لتختبرني؟ أستطيع إخبارك بعض الأشياء عن ذلك تجعلك تتقيأ على حذائي. أعرف ما تريد قوله لي؛ أنّ الاثنين جاءا إلى المنارة لأن المكان يثيرهما أكثر. في بعض

الأحيان يحدث ذلك. هل تعلم أنه في إحدى الليالي حضر قاضٍ مع المرافقة؟".

"حقاً؟ ومن كان؟".

"القاضي كوزينتينو، أستطيع إعطاءك اسمه. في الليلة التي سبقت إرساله إلى البيت مركولاً في مؤخرته وصل إلى المنارة مع سيارة المرافقة، وحصل على مخنّث مارس معه".

"والمرافقون؟".

"قاموا بالتجول على طول الشاطئ. المهم، وبالعودة إلى الموضوع؛ كوزينتينو كان على علم بأنّه تمّ التأكيس عليه فمضى لنزوته. لكن المهندس ما الذي يدفعه لذلك؟ لم يكن رجلاً من هذا الصنف. كان يحب الفتيات، الجميع يعلم ذلك، لكن بكثير من الحذر ودون أن يراه أحد. ومن هي الفتاة القادرة على جعله يعرّض نفسه لكل تلك المخاطر رغم ما يمثّله، من أجل مضاجعة فقط؟ أنا غير مقتنع بذلك، سالفو".

"أكمل".

"إذا فكرنا، بدلاً من ذلك، في أنّ الفتاة لم تكن عاهرة، فالأمر أسوأ بحسب شعوري. ما كانا ليقوما بذلك تحت العيون في المنارة. ومن ثمّ، الفتاة هي من كانت تقود السيارة، هذا مؤكد. بغض النظر عن أنّ أحداً لن يأتمن عاهرة على سيارة تساوي ما تساويه. لا بدّ أنها مرعبة تلك الفتاة، أولاً

لم يكن لديها أي مشكلة بالخوض في مجرى النهر، ثمّ، عندما مات المهندس بين فخذيها، نهضت بهدوء، نزلت، أصلحت هندامها، أغلقت الباب ورحلت. هل يبدو لك أنه أمر طبيعي؟".

"لا يبدو لي طبيعياً".

في تلك اللحظة ضحك جيجيه، وأشعل القداحة.

"ما خطبك؟".

"تعال هنا يا منتاك، قرّب وجهك".

انصاع المحقق له. قام جيجيه بالإضاءة على عينيه ثمّ أطفأها.

"لقد فهمت. الأفكار التي خطرت لك كرجل قانون، هي بدقة الأفكار ذاتها التي خطرت لي كرجل منحرف. وأنت أردت فقط التأكد أنها متوافقة، أليس كذلك، سالفو؟".

"نعم، لقد حزرت".

"من الصعب أن أخطئ أياً أكون. تحياتي، هيا امضِ".

"شكراً" قال مونتابالنو.

غادر المحقق أولاً، لكن بعد لحظات انضم إليه صديقه الذي أومأ له أن يبطئ:

"ماذا تريد؟".

"لا أعرف أين أضعت رأسي، أردت أن أقول لك من

البداية. هل تعلم كم كنتَ لطيفاً اليوم، بعد الغداء، وأنت تمشي يداً بيد مع المفتشة فيرّارا في المنارة؟".

ثمّ أسرع صانعاً مسافة آمنة بينه وبين المحقق قبل أن يرفع ذراعه مودعاً.

***

عاد إلى المنزل. دوّن بعد التفاصيل التي أعطاه إيّاها جيجيه، لكن سرعان ما غلبه النعاس. نظر إلى الساعة ورأى أنها تجاوزت الواحدة بقليل فذهب للنوم. أيقظه القرع الملحاح لجرس البيت، سارعت عيناه باتجاه المنبّه، كانت الساعة الثانية والربع. نهض منهكاً، وهو دائماً ما تكون استجابته بطيئة في لحظات الاستيقاظ الأولى.

"أي أحمق هذا في هذه الساعة؟".

بملابسه الداخلية، كما هو ذهب ليفتح.

"تشاو" قالت آنّا.

لقد نسي أمرها تماماً. لقد أخبرته الفتاة أنها ستجيء للقائه في مثل هذا الوقت تقريباً. كانت آنّا تحدق إليه.

"أرى أنّك ترتدي الزي الملائم" قالت، ودخلت.

"أخبريني بما لديك ثمّ عودي إلى البيت. أنا ميت من التعب".

كان مونتالبانو مستاءً فعلاً من إزعاجه. ذهب إلى غرفة النوم، ارتدى بنطالاً وقميصاً وعاد إلى غرفة الطعام. لم تكن آنّا هناك، كانت في المطبخ، وقد فتحت الثلاجة وبدأت بالفعل بتناول شطيرة من لحم الخنزير.

"جائعة بما لا يمكن تصوره".

"تحدثي وأنت تأكلين".

وضع مونتالبانو ركوة القهوة النابوليتانية على الغاز.

"تصنع القهوة؟ في مثل هذا الوقت؟ وهل تستطيع الرجوع إلى النوم بعد ذلك؟".

"آنّا، لو سمحتِ" لم ينجح بالبقاء مهذباً.

"حسناً؛ اليوم عند العصر، وبعد أن تركتني، علمتُ على الفور من زميل لي، كان بدوره قد أبلغه أحد المقربين، أنه منذ أمس، الثلاثاء، ومنذ الصباح، قام شخص ما بالتوزيع على جميع الصاغة وتجار المسروقات وتجار الآثار تحذيراً يخطرهم فيه؛ إن حضر أحد ما لبيع أو رهن جوهرة معينة فعليهم إبلاغه. هي قلادة مع سلسلة من الذهب الخالص، القلادة على شكل قلب ومرصعة بالألماس، واحدة من الأشياء التي يمكن العثور عليها في ستاندا[1] بعشرة آلاف ليرة، غير أنها حقيقية".

"وكيف سيبلغونه؟ عبر الهاتف؟".

---

١ ستاندا: مركز للتسوق. (م.)

"ليس الأمر مزاحاً. طلب إلى كل منهم أن يصنع علامةً مختلفة، والتي عرفتها: أن يضع قطعة قماش خضراء على النافذة، أو يعلق على الباب مزقة من جريدة أو ما شابه. إنه ذكي، هكذا سيرى هو دون أن يراه أحد".

"صحيح، لكن بالنسبة إليّ...".

"دعني أنتهي. كيف كان يتحدث وكيف تحرّك. الأشخاص الذين استُجوبوا فهموا أنه من الأفضل أن يفعلوا ما طلبه إليهم. ثمّ عرفنا أنّ أشخاصاً آخرين أجروا في الوقت ذاته الجولات ذاتها على الكنائس الست كلّها في المقاطعة، بما فيها فيغاتا. إذاً، من أضاع القلادة يريد استعادتها".

"لا أرى سوءاً في ذلك. لكن لماذا خطر لك أنّه أمر قد يثير اهتمامي؟".

"لأن الرجل أخبر أحد تجار المسروقات من مونتيلوزا أنّ القلادة قد تكون ضاعت في المنارة ليل الأحد أو الاثنين. هل هذا يثير اهتمامك الآن؟".

"في نقطة محددة".

"أعلم، قد تكون مصادفة ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بموت لوباريللو".

"أشكرك على كل حال. والآن عودي إلى البيت فقد تأخر الوقت".

القهوة صارت جاهزة. سكب مونتالبانو فنجاناً لنفسه، وبالطبع استغلت آنّا الفرصة:

"وأنا؟ لا شيء لي؟".

بصبر قديس ملأ مونتالبانو فنجاناً آخر قدمه إليها. كانت آنّا تحبه، لكن أيعقل ألا تفهم أنّ امرأة أخرى اختطفته؟.

"لا" قالت آنّا فجأة وقد توقفت عن الشرب.

"لا ماذا؟".

"لا أريد العودة إلى البيت. هل حقاً ستكون مستاءً لو أمضيتُ الليلة معك هنا؟".

"نعم، سأكون مستاءً".

"لماذا؟".

"أنا صديق مقرب لأبيكِ. ويبدو لي أنني أخطئ بحقه".

"يا للحماقة".

"قد تكون حماقة، لكن الأمر كذلك. ثمّ هل نسيت أنني عاشق، وبشكل جدّي، لامرأة أخرى؟".

"غير الموجودة هنا".

"غير موجودة لكن كأنها موجودة. لا تكوني غبية وتتلفّظي بالترهات. أنت غير محظوظة، آنّا، أنت تتعاملين مع رجل مخلص. للأسف. اعذريني".

لم يفلح بالنوم. كانت آنّا محقّة في تحذيره. القهوة أبقته متيقظاً. لكنْ ثمّة شيء آخر كان يقلقه؛ إذا كانت القلادة قد فقدت في المنارة فلا شك أنّ جيجيه على علم بأمرها. لكن جيجيه حرص ألّا يخبره بشأنها، وبالتأكيد ليس لأنها تفصيل عديم الأهمية.

-٦-

في الخامسة والنصف فجراً، وبعد ليلة أمضاها ينهض ويعود إلى السرير، قرّر مونتالبانو وضع خطة لجيجيه يجعله عبرها يدفع مباشرةً ثمن صمته عن أمر القلادة الضائعة وسخريته من زيارته المنارة. شرب ثلاثة فناجين من القهوة متوالية، ثم ركب السيارة. وصل إلى راباتو، الحي الأقدم في مونتيلوزا، والذي دمّره انهيار أرضي قبل ثلاثين عاماً، وهو اليوم مأهول، وسط الأنقاض التي أعيد ترميمها بشكل مقبول، من قبل تونسيين ومغاربة وصلوا بطرق غير قانونية. توجّه عبر الأزقة الضيقة المتعرجة إلى ساحة سانتا كروتشي. الكنيسة كانت باقية على حالها بين الأنقاض. أخرج من جيبه قصاصة الورق التي أعطاه إياها جيجيه: كارمن، الاسم المستعار، فاطمة بن جلّود، تونسية، تقطن في الكاتويو[١] رقم ٤٨، غرفة أرضية بائسة مع نافذة صغيرة مفتوحة في خشب

---

١ كاتويو (catojo): بيت أرضي صغير. (م.)

باب المدخل لتسمح بمرور الهواء. طرق الباب ولم يجب أحد. طرق مجدداً بقوة أكبر وهذه المرّة جاءه صوت نعس يسأل:

"من؟".

"الشرطة" صاح مونتالبانو. كان قد قرر اللعب بقسوة ليباغت خدرها لحظة الاستيقاظ المفاجئ. ثمّ إن فاطمة، بسبب عملها في المنارة، لا بدّ أنها قد نامت أقل بكثير ممّا فعل هو. فتح الباب. ظهرت المرأة وقد غطت نفسها بمنشفة شاطئ كبيرة أمسكت بها بيد واحدة عند مستوى الصدر.

"ماذا تريد؟".

"التحدث إليكِ".

تنحّت جانباً. داخل الكاتويو كان هناك سرير مزدوج نصفه غير مرتب، طاولة صغيرة مع كرسيين، موقد غاز صغير، ستارة بلاستكية تفصل المغسلة وكرسي المرحاض عن باقي الغرفة. كل شيء يلمع بترتيب مثالي، لكن رائحتها ورائحة العطر الرخيص الذي استخدمته كانت تعبق في الكاتويو وتكاد تخنق الأنفاس.

"أرني تصريح إقامتك".

كأنها في ارتعاشة الخوف تركت المنشفة تسقط عنها ورفعت يديها لتخفي عينيها. ساقان طويلتان، خصر ضيّق، بطن ممسوح، ثديان صلبان شامخان، أنثى حقيقية، تشبه أولئك اللواتي يشاهَدْن في الإعلانات التلفزيونية. بعد لحظة من ترقّب

فاطمة، الثابتة دون حراك، أدرك مونتالبانو أنه لم يكن خوفاً، بل محاولة للوصول بمزيد من الطبيعية والعملانية إلى التسوية بين رجل وامرأة.

"البسي".

كان ثمّة سلك معدني يصل زاوية الكاتويو بالأخرى، توجهت فاطمة نحوه، أكتاف عريضة، ظهر مثالي، ردفين صغيرين مستديرين.

"مع جسد كهذا" فكّر أنطونيو: "لا بدّ أن يكون لديك جواز مرور".

تخيّل طابوراً مترقباً، داخل بعض المكاتب، خلف الباب المغلق الذي تحصّلت منه فاطمة تلك على "تسامح السلطات" مثلما صدف أن يقرأ أحياناً تسامحاً مع بيت دعارة. لبست فاطمة ثوباً قطنياً خفيفاً فوق جسدها العاري، وبقيت واقفة بمواجهة مونتالبانو.

"إذاً، هذه هي الوثائق؟".

أومأت المرأة برأسها أن لا، وبدأت تبكي بصمت.

"لا تخافي" قال المحقق.

"لست خائفة. أنا منحوسة".

"لماذا؟".

"لأنك لو انتظرت بضعة أيام فلن أكون موجودة هنا".

"إلى أين تودين الذهاب؟".

"هناك سيد من فيلا مغرم بي، وأنا أحبه. يوم الأحد قال إنه سيتزوجني، وأنا واثقة به".

"ذاك الذي يجيء لملاقاتك كل سبت وأحد؟".

اتسعت عينا فاطمة.

"كيف عرفتَ؟" وعادت للبكاء.

"لكن كل شيء انتهى الآن".

"أخبريني، هل جيجيه هو من دفعك للذهاب مع هذا الرجل؟"

"السيد تحدث إلى السيد جيجيه. السيد دفع".

"اسمعي فاطمة. تصرفي كأنني لم أجئ إلى هنا، أرغب في طرح سؤال واحد فقط عليك، وإن أجبتني بصدق سأستدير وأرحل وتستطيعين العودة إلى النوم".

"ماذا تريد أن تعرف؟".

"هل سألوكِ في المنارة إن كنتِ عثرتِ على شيء ما؟".

"أوه، نعم. جاء السيد فيليبّو، زلمة السيد جيجيه، وأخبرنا جميعاً إن عثرنا على قلادة ذهبية مرصعة بالألماس أن نعطيه إياها حالاً، وإن لم نعثر، نبحث".

"وهل تعرفين إن تم العثور عليها".

"لا، حتى الليلة الجميع كله يبحث".

"شكراً" قال مونتالبانو متوجهاً نحو الباب. عند العتبة توقف ملتفتاً إلى فاطمة.

"أتمنى لك الخير".

هكذا يكون جيجيه قد تعرّى، وما حرص على إخفائه تمكن مونتالبانو من التوصل إليه بنفسه. ما قالته فاطمة للتو سمح له باستخلاص نتيجة منطقية.

***

وصل إلى مركز الشرطة في السابعة صباحاً، ما جعل الحارس ينظر إليه قلقاً:

"هل هناك شيء سيدي؟".

"لا شيء" أجابه: "فقط أنا استيقظت باكراً".

كان قد اشترى صحيفتين من الجزيرة فبدأ قراءتهما. مع كمية هائلة من التفاصيل أعلنت الأولى عن الجنازة الرسمية للوباريللو التي ستقام في اليوم التالي. ستجري في الكاتدرائية، وسيترأسها الأسقف شخصياً. ستُتّخذ تدابيرُ أمنية استثنائية نظراً إلى التدفق المتوقع للأشخاص الذين سيحضرون لتقديم العزاء وإلقاء تحيتهم الأخيرة. بحسبهما سيكون هناك وزيران، أربعة وكلاء وزارة، ثمانية عشر بين شرفاء وأعضاء مجلس الشيوخ، وحشد من نوّاب الإقليم. وبالتالي سيكون رجال الشرطة،

الدرك، حراس الأمن الداخلي، شرطة البلدية، ملزمين بعدم التركيز على التدابير الشخصية وغيرها، وحتى الأكثر شخصيةً التي التزمت الصحيفة الصمت حيالها، والمشكّلة من أناس سيكون لديهم ما يفعلونه بالطبع لحفظ الأمن العام، بل على الجانب الآخر من الحاجز حيث تجري المراسم. الصحيفة الثانية كررت الأشياء ذاتها تقريباً، مضيفةً أنّ النعش سجيّ في ردهة قصر لوباريللو، وأنّ طابوراً لا نهاية له انتظر لتقديم الشكر للميت على كل ما قام به، في حياته طبعاً، باجتهاد ونزاهة.

في غضون ذلك وصل الرقيب فاتزيو وتحدث مطولاً إلى مونتالبانو بشأن بعض التحقيقات الجارية. لم ترد أي مكالمات هاتفية من مونتيلوزا. صار الوقت منتصف النهار، المحقق فتح ملفاً يحتوي إفادة عمّال النظافة حول العثور على الجثة، نسخ عناوينهم، ودّع الرقيب والعناصر قائلاً إنه سيعود عصراً.

إن كان رجال جيجيه قد تحدثوا مع العاهرات بشأن القلادة، فلا بدّ أنهم فعلوا ذلك مع عمال النظافة دون شك.

***

نزل غرافيت ٢٨، منزل من ثلاثة طوابق مع إنترفون. أجاب صوت امرأة كبيرة.

"أنا صديق بينو".

"ابني ليس هنا".

"ألم ينتهِ من العمل في سبليندور؟".

"انتهى، لكنه يقدم المساعدة في مكان آخر".

"سيدتي هل تفتحين لي؟ فقط عليّ أن أترك له مظروفاً. أيّ طابق؟".

"الأخير".

فقرٌ رصين، غرفتان، مطبخ يمكنهما المكوث فيه، مرحاض. بالإمكان تقدير المساحة بمجرد الدخول. قادته السيدة، وهي خمسينية بملابس متواضعة.

"غرفة بينو من هون".

غرفة صغيرة مليئة بالكتب والمجلات، طاولة صغيرة تحت النافذة مغطاة بالأوراق.

"أين ذهب بينو؟".

"إلى راكّادالي، يعاني من صعوبات مع مارتوليو[1]، ذاك الذي يتحدث عن "سان جيوفانّي ديكولوتا"، نحن نحبه، وبالنسبة إلى ابني عم يعمل مسرحية".

اقترب مونتالبانو من الطاولة الصغيرة. من الواضح أن بينو يكتب مسرحية. على صفحة من الورق كان قد خط عدداً من

---

١ مارتوليو (Nino Martoglio) كاتب ومنتج مسرحي إيطالي كرّس الكتابة باللهجة الصقلية، "سان جيوفانّي ديكولوتا" هي واحدة من أعماله المسرحية. (م.)

السطور. شعر المحقق بالصدمة مع أول اسم قرأه.

"سيدتي، هل تحضرين لي كأس ماء من فضلك؟".

بمجرد أن ابتعدت المرأة طوى الورقة ودسّها في جيبه.

"المظروف" ذكّرته السيدة وهي تعود إليه بالكأس.

قام مونتالبانو بمشهد إيمائي محكم، كان بينو ليعجب به كثيراً لو أنه حاضر؛ فتّش جيوب بنطاله، ثم بسرعة أكبر جيوب سترته، وتصنّع الدهشة، وأخيراً ضرب جبهته بكفّه.

"يا للحماقة! لقد نسيت المظروف في المكتب، هي مسألة خمس دقائق، سأعود إليك حالاً سيدتي".

***

صعد إلى السيارة، أخذ الورقة التي سرقها للتو وقرأها في العتمة. أدار المحرك، وغادر. شارع لينكولن ١٠٢. في إفادته حدّد سارو، ربّما، المبنى. سدّد المحقق وانطلق مخمناً أنّ عامل النظافة المسّاح لا بد أنه يعيش في الطابق السادس. كان باب المبنى مفتوحاً، هناك مصعد لكنه معطل. صعد الطوابق الستة، لكنّه شعر بالرضا لتخمينه رقم الطابق. على لوحة صقيلة قرأ بوضوح: "بالداسّاري مونتابيرتو" جاءت لتفتح شابة صغيرة، وبين ذراعيها طفل بعينين مفنجرتين.

"هل سارو هنا؟".

"ذهب إلى الصيدلية لإحضار الدواء لابننا، لكنه سيعود حالاً".

"لماذا؟ هل هو مريض؟".

دون أن تجيب مدت المرأة ذراعيها لتريه. الطفل الصغير كان مريضاً، بشرة مصفرة، وجنتان غائرتان، عينان كبيرتان مفتوحتان على اتساعهما تحدقان بعبوس. شعر مونتالبانو بالشفقة، لم يستطع النظر إلى تلك المعاناة دون شعور بالذنب.

"ما الذي أصابه؟".

"لقد عجز الأطباء عن تفسير الأمر. لكن من حضرتك؟".

"اسمي فيردوتزو، محاسب في سبليندور".

"تفضّل".

شعرت المرأة بشيء من الطمأنينة. الشقة كانت غير مرتبة، وكان جلياً أن زوجة سارو تحتاج البقاء مع الطفل دوماً فلا تعتني بالمنزل.

"ماذا تريدون من سارو؟".

"أعتقد أنني ارتكبتُ خطأً، أفترض ذلك، في آخر دفعة، وأودّ رؤية الكشف".

"إن كان هذا السبب" قالت المرأة: "لا حاجة إلى انتظار سارو، أستطيع أنا أن أريك الكشف. تعال".

تبعها مونتالبانو، وكان على استعداد لاختلاق عذر آخر للبقاء

حتى وصول زوجها. كانت رائحة غرفة النوم كريهة، شبيهة برائحة الحليب الفاسد. المرأة حاولت فتح أعلى درج في الخزانة متعددة الأدراج لكنها لم تستطع لاضطرارها أن تفعل ذلك بيد واحدة بينما ذراعها الأخرى تمسك بالطفل.

"إن سمحتِ لي يمكنني القيام بذلك" قال مونتالبانو.

تنحّت المرأة، وفتح المحقق الدرج ليراه مليئاً بالأوراق، الفواتير، الوصفات الطبية، الإيصالات.

"أين سيكون الكشف؟".

كان سارو قد دخل غرفة النوم في هذه الأثناء، ولم يشعرا بوصوله لأن باب البيت بقي مفتوحاً. لحظة رؤيته لمونتالبانو يفتش الدرج أيقن أن المفتش قصد منزله بحثاً عن القلادة. شحب لونه، بدأ يرتجف، واتكأ على دعامة الباب.

"ماذا تريد؟" تحدّث بمشقة.

مذعورةً لملاحظتها خوف زوجها تحدثت المرأة قبل أن ينجح مونتالبانو بالإجابة.

"لكنه المحاسب فيردوتزو" صرخت تقريباً.

"فيردوتزو؟! إنه المحقق مونتالبانو".

ترنّحت المرأة واندفع مونتالبانو لإسنادها خوفاً من أن ينتهي الأمر بالطفل على الأرض مع والدته، ساعدها للجلوس على السرير. ثمّ تحدث المحقق، وراحت الكلمات تخرج من فمه

دون تفكير، وهي ظاهرة حدثت له في مرات سابقة، وكان صحافيّ صاحب خيال قد أطلق عليها ذات مرّة: "ومضة البديهة التي تصعق شرطتنا من حين إلى آخر".

"أين وضعتما القلادة؟".

تحرك سارو، محاولاً التماسك للتغلب على انحلال ساقيه. ذهب إلى الكومودينة الخاصة به، فتح الدرج، أخرج حزمة مصنوعة من أوراق الجرائد وألقاها على السرير. أخذها مونتالبانو، ذهب إلى المطبخ، جلس وفكّ الحزمة. كانت جوهرة رديئة المظهر وعالية الدقة؛ رديئة من حيث فكرة التصميم، لكنها مصنوعة ومرصّعة بالألماس بدقة متناهية. في تلك الأثناء تبعه سارو إلى المطبخ.

"متى عثرت عليها؟".

"الاثنين باكراً، في المنارة".

"هل أخبرت أحداً بأمرها؟".

"لا أحد، فقط زوجتي".

"وهل حضر أحد لاستنطاقك إن كنت عثرت على قلادة كذا وكذا؟".

"إي، فيليبّو دي كوسمو، زلمة جيجيه غوللوتّا".

"وماذا قلت له؟".

"إنني لم أعثر على شيء".

"هل صدقك؟".

"إي، أعتقد أنو إي. وقال إن وجدتها عليّ أن أعطيها له دون أن أرتكب حماقة، لأنها شيء شديد الحساسية".

"وهل وعدك بشيء؟".

"بالموت إن عثرت عليها واحتفظت بها، وبخمسين ألف ليرة إن وجدتها وأعطيته إياها".

"ما الذي وددتم فعله بالقلادة؟".

"كنت أرغب في رهنها. هكذا قررنا أنا وتانا".

"ألم ترغبا في بيعها؟".

"حاشا، لسنا نحن، فكّرنا في الأمر كما لو أنه دَين، لم نرغب في الاستغلال".

"نحن أناس طيبون، نحن" تدخلت زوجته فور دخولها وهي تمسح عينيها الباكيتين.

"ماذا أردتما أن تفعلا بالمال؟".

"أردنا استخدامه لعلاج ابننا. كنا سننقله إلى أي مكان بعيد من هنا، إلى روما، ميلانو، إلى أي مكان يوجد فيه أطباء يفهمون".

مضت لحظات من الصمت. ثم طلب مونتالبانو من المرأة ورقتين، فقامت باقتطاعهما من دفتر ملاحظات يستخدم لحسابات البقالة. أعطى مونتالبانو إحدى الورقتين لسارو.

"ارسم لي مخططاً يشرح لي أين عثرت على القلادة. أنت مسّاح أليس كذلك؟".

بينما سارو يرسم، مونتالبانو كتب على الورقة الأخرى:

أنا الموقّع أدناه مونتالبانو سالفو، المحقق في مكتب الأمن العام في فيغاتا (مقاطعة مونتيلوزا) أقر أنني بتاريخ اليوم استلمت من يدي السيد مونتابيرتو بالدسّاري، المعروف باسم سارو، عِقداً من الذهب الخالص، مع قلادة على هيئة قلب، هي أيضاً من الذهب الخالص ومرصعة بالألماس، والذي عثر عليه بنفسه في المنطقة المسماة المنارة، خلال تأدية عمله كعامل نظافة. بكل إخلاص.

وقّع، لكنه فكّر قبل وضع التاريخ في الأسفل، ثمّ قرّر وكتب: (فيغاتا، ٩ أيلول، ١٩٩٣). في هذه الأثناء كان سارو قد انتهى أيضاً، فتبادلا الأوراق.

"عظيم" قال المحقق وهو يتفحص الرسم التفصيلي.

"هنا يوجد خطأ في التاريخ" لاحظ سارو: "التاسع من أيلول كان يوم الاثنين الفائت نحن اليوم في الحادي عشر".

"لا يوجد أي خطأ. أنت أحضرت القلادة إلى مكتبي في اليوم ذاته الذي عثرت فيه عليها. كانت في جيبك حين جئت تخبر الشرطة أنكم عثرتم على لوباريللو ميتاً، لكنك أعطيتها لي

بعد ذلك لأنك لم ترغب أن يرى زميلك في العمل ذلك. هل هذا واضح؟".

"إن كان ما تريد".

"احتفظي بهذا الإيصال عزيزتي".

"وما أنت فاعل الآن، توقفونه؟" تساءلت المرأة.

"لماذا؟ ماذا فعل؟" أجاب مونتالبانو موارباً وهو ينهض.

-٧-

في حانة سان كلوجيرو كانوا يحترمونه لأنه زبونٌ جيّد أكثر من كونه محققاً، إنه واحد من أولئك الذين يستحقون التقدير. قدّموا له البوري الأحمر الطازج، مقلياً، مقرمشاً، موضوعاً فوق قطعة من الخبز تجففه من الزيت. بعد شرب القهوة، ونزهة طويلة على الرصيف الشرقي، عاد إلى المكتب. نهض فاتزيو من خلف مكتبه بمجرد أن رآه:

"سيدي، هناك من ينتظرك".

"من؟".

"بينو كاتالانو، إن كنت تذكره؟ واحد من عاملَي النظافة اللذين عثرا على جثة لوباريللو".

"دعه يجيء إليّ حالاً".

فهم على الفور أن الشاب كان متوتراً، ومضطرباً. "إنه متعطش".

وضع بينو مؤخرته على جزء من الكرسي.

"هل أستطيع معرفة سبب حضورك إلى منزلي وافتعالك تلك المسرحية؟ أنا، ليس لدي ما أخفيه".

"فعلت ذلك، ببساطة، كيلا تخاف والدتك. لو أخبرتها أنني محقق، هل لك أن تتخيل أي صدمة كانت لتصيبها؟".

"إن كان هذا هو الأمر فشكراً".

"كيف عرفت أنني كنت أبحث عنك؟".

"اتصلت بوالدتي لأطمئن إلى حالها، لقد تركتها تعاني صداعاً، وهي أخبرتني أن رجلاً حضر ليعطيني كشفاً، لكنه اكتشف أنه نسيه. لقد خرج قائلاً إنه سيحضره ويعود، ولم يرجع. ارتبت لذلك وطلبت إليها وصف الشخص. حين ترغب أن تقنع أحداً أنك شخص آخر عليك إزالة تلك الشامة تحت عينك اليسرى. ماذا تريد مني؟".

"سؤال واحد. هل جاء أحد ما إلى المنارة ليستفسر منك إن كنت بالصدفة قد عثرت على قلادة؟".

"إي إي، شخص أنت تعرفه، فيليبّو دي كوسمو".

"وأنت؟".

"قلت له الحقيقة. إنني لم أعثر على شيء".

"وهو؟".

"هو قال لي إن عثرت عليها سيكون أفضل، سيمنحني

خمسين ألف ليرة، وبخلاف ذلك، إن عثرت عليها ولم أعطها له سيكون الأمر بغاية السوء. الأشياء ذاتها التي قالها لسارو. في حال سارو عثر عليها".

"هل مررت ببيتك قبل أن تجيء إلى هنا؟".

"لا، جئت إلى هنا مباشرةً".

"أنت تكتب أشياء للمسرح؟".

"لا، لكني أحب ذلك فأحاول بين وقت وآخر".

"إذاً؛ ما هذه؟".

ودفع إليه بالورقة التي سرقها عن طاولته. نظر إليها بينو مبتسماً دون أدنى اضطراب.

"لا، هذا ليس مشهداً مسرحياً، إنه...".

صمت مرتبكاً. لقد أدرك أنه في حال لم تكن هذه السطور حواراً مسرحياً فسيتعين عليه أن يشرح ما هي حقيقةً، وهذا ليس بالأمر السهل.

"سأهون الأمر عليك" قال مونتالبانو: "هذا نص مكالمة هاتفية أجراها أحدكما مع المحامي ريتزو عقب اكتشاف جثة لوباريللو مباشرة، وحتى قبل المجيء إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن الأمر، أليس كذلك؟".

"إي إي".

"من الذي أجرى المكالمة؟".

"أنا. لكن سارو كان قريباً مني وسمع".

"لماذا فعلتما ذلك؟".

"لأن المهندس كان شخصية مهمة، ذا مركز. لذا فكرنا في إبلاغ المحامي. لكن لا، فكرنا قبلاً في الاتصال بالنائب كوسومانو".

"ولِمَ لم تفعلا؟".

"لأن كوسومانو، بموت لوباريللو، سيكون ليس كمن خسر منزله فقط بفعل الزلزال، بل خسر أيضاً الأموال التي يحتفظ بها تحت البلاطة".

"أوضح لي بشكل أفضل، لماذا أبلغتما ريتزو؟".

"لأنه يعرف، كما أنه يستطيع فعل شيء ما".

"أي شيء؟".

لم يجب بينو، كان جالساً يمرر لسانه على شفتيه.

"سأهونها عليك مجدداً. قلت: يعرف ويستطيع فعل شيء ما. الشيء المقصود هو نقل السيارة من المنارة ليتم العثور على الميت في ناحية أخرى، أليس كذلك؟ هل اعتقدتما أنّ ريتزو قد يطلب إليكما ذلك؟".

"إي إي".

"وهل كنتما لتفعلا؟".

"طبعاً، اتصلنا به لهذا السبب".

"وما الذي كنتما ترجوانه بالمقابل؟".

"أن يبدّل عملنا ربّما، أن يساعدنا للنجاح في مسابقة اختيار المسّاحين، فنكون في موقعنا الصحيح عوض هذه الوظيفة كعاملَي نظافة. حضرة المحقق، أنت تعلم أفضل مني أنّ المرء ما لم يحصل على مساعدة فإنه لا يبحر".

"فسّر لي أمراً أكثر أهمية؛ لماذا نسخت ذلك الحوار، هل كنت راغباً في ابتزازه؟".

"كيف؟ بالكلمات؟ الكلمات أشياء من هواء".

"إذاً ما هو الهدف؟".

"إن أردت تصديقي صدقني، وإلا فلا حول ولا. لقد كتبت تلك المكالمة لأنني أدرت دراستها، أنا لا ألعب، أتحدث عن ذلك كرجل مسرح".

"لا أفهمك".

"لنفترض أنّ المكتوب هنا يجب أن يروى، جيد؟ حسناً؛ أنا شخصية بينو، اتصل في الصباح الباكر بشخصية ريتزو ليخبره أنه عثر على شخص ميت هو يعمل سكرتيراً معه، وهو صديق مخلص، ورفيق له في السياسة. أكثر من أخ. شخصية ريتزو تبقى باردةً كلوحٍ من الثلج، لا تهتز، لا تسأل أين عثرنا عليه، كيف مات، إن كان قد تعرض لإطلاق رصاص، إن كان حادث سيارة. لا شيء على الإطلاق. فقط يسأل لماذا نتصل لنخبره هو

بذلك. هل يبدو لك هذا أمراً طبيعياً؟".

"لا. تابع".

"لا يبدي أي دهشة، لا بأس، غير أنه عوض ذلك يحاول توسيع المسافة بينه وبين الميت. وكأن الأمر شيء عابر. وحالاً يطلب إلينا المضي للقيام بواجبنا، أي إبلاغ الشرطة. ثم يغلق الخط. لا، سيدي المحقق، كل شيء خاطئ كمسرحية كوميدية. الجمهور يجب أن يضحك، وهذا لن يحدث".

سمح مونتالبانو لبينو بالمغادرة، واحتفظ بالورقة التي أعاد قراءتها بعد خروج عامل النظافة.

أصاب طبعاً؛ أصاب التساؤل إن كان ريتزو في المسرحية الافتراضية، والتي ليست افتراضية، كان على علم، قبل المكالمة الهاتفية، بمكان وكيفية موت لوباريللو، وأنه كان مستعجلاً أن يتم اكتشاف الجثة بأسرع وقت.

***

حدّق جاكوموتزي إليه بذهول، كان المحقّق واقفاً أمامه بمنتهى الأناقة، بذلة زرقاء داكنة، قميص أبيض، ربطة عنق خمرية، حذاء أسود لامع.

"يا يسوع! أنت ذاهب للزواج؟".

"هل انتهيتم من سيارة لوباريللو؟ على ماذا عثرتم؟".

"داخلها، لا شيء ذا صلة. لكن...".

"... نظام التعليق فيها كان معطلاً".

"كيف عرفت ذلك؟".

"أخبرتني العصفورة. أصغِ، جاكوموتزي".

أخرج القلادة من جيبه وألقى بها على الطاولة.

أخذها جاكوموتزي وأمعن النظر فيها، وبدا عليه الذهول.

"إنها حقيقية، تساوي عشرات وعشرات الملايين! هل سرقوها؟".

"لا، أحدهم وجدها على الأرض في المنارة وأحضرها إليّ".

"في المنارة؟! أيّ عاهرة تلك التي تستطيع ارتداء قلادة كهذه؟ أنت تمزح؟".

"عليك فحصها وتصويرها، باختصار، قم بعملك وأعطني النتائج بأسرع وقت ممكن".

رنّ الهاتف، أجاب جاكوموتزي، ثمّ مرّر السماعة لزميله.

"من؟".

"أنا فاتزو، سيدي، ثمّة شيء فاجر يحدث الآن".

"أخبرني".

"المعلم كونتينو يطلق النار على الناس".

"ماذا معنى أنه يطلق النار؟".

"يطلق النار، يطلق النار. لقد أطلق رصاصتين من شرفة منزله على الأشخاص الجالسين في المقهى في الأسفل، وهو يصرخ بأصوات غير مفهومة. وأطلق رصاصة ثالثة عليّ وأنا أدخل من باب منزله لرؤية ما يحدث".

"هل قتل أحداً؟".

"لا أحد. أصاب ذراع دي فرانشيسكو بجرح".

"حسناً، أنا قادم حالاً".

***

بينما هو يقطع الكيلومترات العشرة التي تفصله عن فيغاتا بسرعة فائقة، فكّر مونتالبانو في المعلّم كونتينو، لم يكن على معرفة به فحسب، بل إنهما يتشاركان سرّاً. قبل ستة أشهر كان المحقق في نزهته التي تعود القيام بها مرّتين أو ثلاثاً في الأسبوع، حيث يمشي على طول الرصيف الشرقي، حتى الفنار. وقبل كل شيء يعبر بمتجر أنسيلمو غريكو، وهو كوخ حجري يقبع بين متاجر الألبسة والمقاهي ذات الواجهات اللامعة. غريكو، من بين أشياء عفا عليها الزمن، كالدمى الطينية، والأوزان الصدئة العائدة للقرن التاسع عشر، كان يبيع البذورات والحمّص المجفف وبذور اليقطين المملحة، فيملأ جيبه منها ثمّ يمضي. في ذلك اليوم وصل إلى الحافّة، أسفل

الفنار مباشرةً، وفيما هو على وشك الاستدارة للعودة رأى تحته رجلاً غير واضح العمر ماكثاً دون حراك فوق خرسانة إسمنتية من كاسرات الأمواج، رأسه للأسفل، غير مكترث برذاذ البحر يبلله. حدق مونتالبانو أكثر للتأكد إن كان الرجل يمسك صنّارة صيد، لكنه لم يكن يصطاد، لم يكن يفعل شيئاً. وفي لحظة مباغتة نهض الرجل، وبسرعة رسم إشارة الصليب وهو يوازن نفسه على الحافّة.

"توقف" صرخ مونتالبانو.

تسمّر الرجل ذاهلاً إذ كان يظن نفسه وحيداً. بقفزتين انضم مونتالبانو إليه، أمسكه من ياقة سترته وحمله إلى نقطة آمنة.

"ما الذي ترغب فيه؟ أن تقتل نفسك؟".

"نعم".

"لماذا؟".

"لأنّ زوجتي ركّبت لي قروناً".

توقّع مونتالبانو كل شيء باستثناء هذا السبب، فالرجل من المؤكد أنه تجاوز الثمانين من العمر.

"وكم عمر زوجتك؟".

"لنقل ثمانين. أنا عمري اثنانِ وثمانون".

حوار عبثي في وضعية عبثية لم يرغب المحقق في مواصلته.

أخذ الرجل من ذراعه وأرغمه على السير باتجاه البلدة. عندئذ، وليغدو الأمر أكثر جنوناً، عرّف الرجل بنفسه.

"هل تسمح؟ أنا جوسويه كونتينو، كنت معلماً ابتدائياً. وأنت من تكون؟ إن رغبت أن تخبرني طبعاً".

"اسمي سالفو مونتالبانو. محقق من الأمن العام في فيغاتا".

"آه، حقاً؟ جئت بوقتك؛ أخبر تلك العاهرة الكبيرة زوجتي أنه يتوجب عليها ألا تضع لي قروناً بعبثها مع أغاتينو دي فرانشيسكو، وإلا فإنني يوماً ما سأرتكب فظاعة".

"من هو دي فرانشيسكو؟".

"كان ساعي بريد. هو أكثر شباباً مني، عمره ستة وسبعون عاماً، وراتبه التقاعدي أكبر من راتبي بمرة ونصف".

"هل أنت متأكد ممّا تقول، أم مجرد شبهة؟".

"إنه يقين. أقسم بالإنجيل. كل يوم بعد الغداء، الذي يرسله الله إلى الأرض ماءً أو شمساً، يجيء دي فرانشيسكو ذاك لشرب القهوة في المقهى الموجود تحت منزلي مباشرةً".

"وماذا بعد؟".

"كم يستغرق شرب القهوة؟".

للحظة سمح مونتالبانو لنفسه أن ينغمس في الجنون الهادئ للمعلم العجوز.

"حسب. إن كنت واقفاً...".

"ما علاقة الوقوف؟ جلوساً!".

"إذاً الأمر يتعلّق بما إذا كنتُ على موعد أو أنتظر أو أنني أرغب فقط في تمضية الوقت".

"لا، عزيزي، هو يجلس هناك فقط ليحدق إلى زوجتي التي تشير له، ولا يفوتان فرصة للقيام بذلك".

في غضون ذلك وصلا إلى البلدة.

"أين تعيش أستاذ؟".

"في نهاية الشارع، فوق ساحة دانتي".

"لنأخذ الطريق الخلفي إذاً، أفضل". لم يرغب مونتالبانو في أن تثير هيئةُ العجوز المبلل والمرتعش من البرد فضولَ أهل فيغاتا وتساؤلاتهم.

"ألن تصعد معي؟ ألا ترغب في القهوة؟". راقب المعلّم وهو يخرج المفاتيح من جيبه.

"لا، شكراً. بدّل ملابسك يا أستاذ وجفف نفسك".

في الليلة نفسها استدعى دي فرانشيسكو، ساعي البريد السابق، وهو عجوز ضئيل، بغيض، ردّ على نصيحة المحقق مباشرةً بصوت حاد.

"قهوتي أنا أشربها أينما أحب. هل ممنوع عليّ الذهاب إلى المقهى الموجود تحت بيت ذلك الأخرق كونتينو؟ أنا منذهل منك، أنت من يفترض أنك تمثّل القانون، تجيء بي بدلاً من

ذلك لتلقي عليّ تلك المحاضرة".

***

"كل شيء انتهى" قال شرطي البلدية الذي أبعد الفضوليين عن مدخل ساحة دانتي. أمام مدخل الشقة كان الرقيب فاتزيو هادئاً مكتّف الذراعين. الغرف مرتبة على أتمّ وجه، ولامعة كالمرايا. المعلّم كونتينو ممدّد على أريكة وبقعة صغيرة من الدم ناحية القلب. المسدس ملقى على الأرض بجانب الأريكة، وهو من طراز سميث آند ويسون بخمس طلقات، قديم جداً، يعود على الأقل إلى زمن بوفالّو بِلّ[1]، ولسوء الحظ أنه كان ما يزال يعمل. في المقابل كانت الزوجة مستلقية على السرير وملطخةً بالدماء هي أيضاً عند قلبها، فيما كفاها متشبثتان بمسبحة. لا بدّ أنها صلّت قبل أن تسمح لزوجها بقتلها. من جديد خطر المفوّض على رأس مونتالبانو، هذه المرة كان على حق؛ هنا، عثر الموت على كرامته.

متوتراً، وغاضباً، أعطى أوامره للرقيب وتركه بانتظار القاضي. كان يشعر، إضافةً إلى الكآبة المفاجئة، بشيء من تأنيب الضمير؛ ماذا لو أنّه تدخّل بحكمة أكبر فيما يخص المعلم؟ ماذا لو أبلغ

١ بوفالّو بِلّ: هو ويليام فريدريك كودي، جندي أميركي عاش بين ١٨٤٦ -١٩١٦. (م.)

أصدقاء كونتينو في الوقت المناسب، أو طبيبه؟

***

تمشّى على طول الرصيف الشرقي الذي يفضله، ثمّ، وقد هدأ بعض الشيء، عاد إلى المكتب. من فضل الله أنه وجد فاتزيو هناك.

"ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ ألم يصل القاضي بعد؟".

"لا، لقد جاء وقاموا بنقل الجثث".

"وما خطبك إذاً؟".

"يذهلني أنه وبينما كان نصف سكان البلدة منشغلين بمشاهدة المعلم كونتينو وهو يطلق النار، قام بعض العرصات بتنظيف شقتين عن بكرة أبيهما. لقد أرسلت أربعةً من عناصرنا، وبقيت بانتظارك علّني ألحق بهم".

"حسناً، اذهب وأنا سأبقى هنا".

***

قرر أنّ اللحظة حانت وبلغ السيل الزبى، وأنّ ما يدور في رأسه آن له أن يعمل.

"جاكومزتزي؟".

"إيه، اللعنة، ما كل هذا القلق؟ لم يبلغوني بعد أي شيء بشأن قلادتك تلك. ما زال الوقت مبكراً".

"أعلم جيداً أنك ما زلت لا تستطيع إخباري أي شيء. أحسب هذا الحساب جيداً".

"ماذا تريد إذاً؟".

"أوصيك بأقصى السرية. قصة القلادة ليست بالأمر البسيط كما تبدو، إنها قد تؤدي إلى تطورات غير متوقعة".

"لكنك تسيء إليّ إن طلبت ألّا أتحدث عن شيء ما. أنا لا أتحدث بتاتاً لو على قطع رقبتي".

***

"المهندس لوباريللو، أنا حقاً في غاية الأسف لعدم استطاعتي المجيء اليوم. لكن، صدقني، بغتةً وجدتُ نفسي غير قادر على الإطلاق. من فضلك أبلغ اعتذاري لوالدتك".

"انتظر لحظة سيدي المحقق".

بصبر طويل انتظر مونتالبانو.

"سيدي المحقق؟ تقول والدتي، إن كان يناسبكم، فغداً في التوقيت ذاته".

كان الأمر مناسباً، ووافق عليه.

-٨-

عاد إلى المنزل مرهقاً وبنية التوجه إلى النوم مباشرة، لكنه، بشكل شبه آلي، وبحركة لا إرادية، أدار التلفاز. الصحافي في Televigàta أنهى الحديث عن حدث اليوم؛ إطلاق نار بين مجموعة صغيرة من المافيا في ضواحي ميليتا قبل ساعات قليلة، وأعلن أنه في مونتيلوزا اجتمعت الأمانة الإقليمية للحزب الذي ينتمي إليه (أو بالأحرى؛ الذي كان ينتمي إليه) المهندس لوباريللو. الاجتماع الاستثنائي الذي كان، في أوقات أقل هيجاناً من الأوقات الراهنة ومن واجب الاحترام للمتوفى، يجب أن ينعقد على الأقل بعد الذكرى الثلاثين لرحيله، لكن اضطراب الوضع السياسي الآن يتطلب خيارات واضحة وسريعة، لذا: تمّ، بالإجماع، انتخاب سكرتير للمقاطعة، الدكتور آنجيلو كاردامونى، اختصاصي العظام في مستشفى مونتيلوزا، الرجل الذي كان دائم الصراع مع لوباريللو

داخل الحزب، لكن بنزاهة وشجاعة وعلانية. هذا التباين في الرؤى – تابعَ المراسل – يمكن تبسيطه بما يلي: المهندس أراد الحفاظ على الرباعية[1] في الحزب مع إدخال قوى بكر لا توترات سياسية لديها (يقرأ: من خلال مذكّرات لم يتمّ التوصل إليها حتى الآن)، بينما طبيب العظام يميل إلى الحوار مع اليسار وإن كان داهيةً وحذراً. وكان العضو المنتخب حديثاً قد تلقى برقيات ومكالمات التهنئة حتى من المعارضة. كارداموني، في المقابلة معه، بدا متأثراً لكن حازماً، وأعلن أنه سيبذل قصارى جهده لعدم تشويه الذكرى النقية لسلفه، واختتم أنه سيمنح الحزب المتجدد "عمله الدؤوب وعلمه".

"الحمد لله أنه سيمنحها للحزب" لم يستطع مونتالبانو لجم نفسه عن التعليق، نظراً إلى كون علم كاردموني، من ناحية الجراحة، خلّف في المقاطعة عدداً من المعاقين يفوق عموماً ما قد يخلّفه زلزال مدمّر.

الكلمات التي أضافها الصحافي مباشرةً بعد ذلك أثارت انتباه أذني المحقق. لضمان أن يتمكن الدكتور كاردموني من اتباع نهجه الخاص دون التنكّر لتلك المبادئ وأولئك الرجال الذين يمثّلون أفضل نشاطات المهندس السياسية توسّل أعضاء الأمانة

[1] الرباعية: صيغة سياسية تعني دعم الحكومة من قبل ائتلاف مكون من أربعة أحزاب. (م.)

العامّة للمحامي بييترو ريتزو، الوريث الروحي للوباريللو، الوقوف جنباً إلى جنب مع السكرتير الجديد. بعد شيء من التمنّع، المفهوم بسبب المشقة التي تنطوي عليها المهمّة المفاجئة، اقتنع ريتزو بقبولها. وفي المقابلة التي أجرتها معه Televigàta أوضح المحامي، المتأثر أيضاً، أنه ينبغي له تحمل العبء الجسيم للبقاء مخلصاً لذكرى معلّمه وصديقه، الذي كانت كلمة سرّه على الدوام هي فقط: الخدمة. تساؤل مفاجئ ولد لدى مونتالبانو: كيف للمنتخب الجديد أن يتم دعمه عبر الحضور الرسمي لذاك الذي كان بمثابة المساعد الأكثر إخلاصاً لخصمه الرئيس؟ لم تدم المفاجأة طويلاً، فالمحقق، وبتحليل بسيط، وصّف ذلك التساؤل بالسذاجة؛ فهذا الحزب تميّز دوماً بدعوته الفطرية للتسوية والتلاقي في منتصف الطريق. من المحتمل أنّ كاردا موني ما يزال طريّ العود على القيام بالمهمة بمفرده، وعليه ارتأوا حاجته إلى دعامة.

غيّر المحطة. على Reteliberà، صوت المعارضة اليسارية، كان نيكولو زيتو، كاتب العمود الأكثر متابعةً، يشرح كيف وبأي طريقة، zara zabara[١]، قالها باللكنة مراعاةً لاختلاف المعنى عن اللاتينية، أن الأمور في الجزيرة، وفي مقاطعة

[١] zara zabara: مصطلح غير قابل للترجمة يفيد بمعنى من المعاني أنّ كل شيء سيبقى على حاله مهما حدث. (م.)

مونتيلوزا تحديداً، تتحرك ببطء شديد حتى لو أشار البارومتر إلى حدوث عاصفة. لقد اقتبس، وقد امتلك سهولة التلاعب، عبارة سالينيانا[1]: "تغيير كلّ شيء كيلا يتغيّر شيء". وخلص إلى أنّ الاثنين، لوباريللو وكارداموني كانا وجهين لعملة واحدة، وأنّ الرابط بين الوجهين لم يكن إلا المحامي ريتزو.

هرع مونتالبانو إلى الهاتف، وطلب رقم Reteliberà طالباً زيتو. كان ثمّة مودة تقارب الصداقة بينه وبين الصحافي.

"ماذا تريد أيها المحقق؟".

"أريد أن أراك".

"صديقي العزيز، غداً صباحاً أنا متوجّه إلى باليرمو، سأمكث هناك لأسبوع على الأقل. هل أنت موجود إن جئت للقائك خلال نصف ساعة؟ وعليك أن تحضّر لي شيئاً آكله، أنا جائع".

***

طبق من المعكرونة بالتوم وزيت الزيتون لا مشكلة في تحضيره. فتح الثلاجة، كانت آديلينا قد حضّرت له طبقاً معتبراً من القريدس المسلوق يكفي لأربعة أشخاص. آديلينا هي أم

---

١ سالينيانا: عبارة ترد على لسان بطل رواية "الفهد" للكاتب الإيطالي جوزيبّي توماس دي لامبيدوزا. (م.)

لاثنين من المجرمين، الأصغر بين الشقيقين كان مونتالبانو هو بنفسه مَن اعتقله قبل ثلاث سنوات، وهو ما يزال سجيناً.

عندما جاءت ليفيا إلى فيغاتا لقضاء أسبوعين معه، في حزيران الماضي، أحسّت بالذعر وهي تسمع تلك القصة.

"لكن هل أنت مجنون؟ يوماً ما ستقرر الانتقام وتدسّ لك السمّ في الحساء".

"لأي شيء ستنتقم؟".

"لاعتقالك ابنها".

"ما ذنبي أنا؟ آديلينا تعرف جيداً أن لا

ابنها الذي ارتكب حماقة أودت لاعتقاله. لقد تصرّفتُ بنزاهة لاعتقاله، دون فخاخ أو كمائن. كان كل شيء نظامياً".

"لا أكترث لطريقة تفكيرك المنافية للمنطق، عليك التخلص منها".

"إن تخلصت منها من سيعتني ببيتي؟ إنها تغسل وتكوي وتعد لي الطعام".

"تستطيع أن تحضر واحدة أخرى".

"في هذا أنت مخطئة، لا يوجد امرأة طيبة مثل آديلينا".

***

كان يهم بوضع الماء على النار حين رنّ الهاتف.

"أودّ أن تبتلعني الأرض لأنني أيقظتك في مثل هذا الوقت" كانت هذه الافتتاحية.

"لست نائماً. من المتحدث؟".

"أنا المحامي بييترو ريتزو".

"آه، المحامي. تهانيّ لكم".

"على ماذا؟ إن كان من أجل الشرف الذي منحني إياه الحزب فالأحرى هو تقديم التعازي. لقد وافقت، صدقني، فقط وفاءً مني للرابط الذي جمعني دائماً إلى مُثُل المهندس المسكين. لكن دعني أعود لموضوع مكالمتي؛ أحتاج رؤيتك سيدي المحقق".

"الآن؟".

"بالطبع ليس الآن، لكن أعتقد أنها مسألة improcrastinabilità (لا تحتمل التأجيل)".

"يمكننا ذلك غداً صباحاً، لكن أليست الجنازة صباح الغد؟ أعتقد أنك ستكون منشغلاً جداً".

"هذا هو الحال، وطوال العصر أيضاً. سيكون هناك العديد من الضيوف ذوي المكانة كما تعلم".

"متى إذاً؟".

"انظر، وفكر في الأمر جيداً، يمكننا ذلك صباح الغد أيضاً، ولكن علينا أن نفعل ذلك في وقت مبكر. في أي ساعة

تذهب إلى المكتب عادةً؟".
"نحو الثامنة".
"الثامنة بالنسبة إليّ وقت جيد جداً. والأمر لن يستغرق سوى بضع دقائق".
"اسمع، سيدي المحامي، بما أنّ وقتك سيكون مضغوطاً في الصباح، ألا يمكنك أن تخبرني بماذا يتعلق الموضوع؟".
"على الهاتف؟".
"رؤوس أقلام".
"حسناً. لقد تناهى إلى سمعي، ولكن لا أعرف مدى حقيقة الشائعات، أنه ربّما سُلِّمْتَ شيئاً عثر عليه على الأرض مصادفةً. وأنا مسؤول عن استعادته".
مونتالبانو غطّى سماعة الهاتف بيده وانفجر، حرفياً، بضحك كصهيل الحصان، سخرية عظيمة. لقد وضع القلادة كطعم في خطّاف جاكوموتزي، ويبدو أن الحيلة عملت عملها بشكل جيد جداً فابتلعت الطعم أكبر سمكة كان يأمل بالحصول عليها. لكن ماذا فعل جاكوموتزي ليعرف الجميع ما لا يجب على الجميع معرفته؟ هل لجأ إلى أشعة الليزر، أو التخاطر، أو الممارسات السحرية للشامانية[1]؟ سمع المحامي يصرخ.

---

[1] الشامانية: ظاهرة دينية تتضمن طقوساً من السحر والشعوذة. (م.)

"برونتو؟ برونتو؟ ألم تعد سمعني؟ هل انقطع الخط؟".

"لا، اعذرني، سقط قلم الرصاص على الأرض وكنت ألتقطه. نلتقي غداً عند الثامنة".

بمجرد سماعه جرس البيت أسقط المعكرونة وذهب ليفتح.

"ماذا أعددت لي؟" سأل زيتو وهو يدخل.

"معكرونة بالثوم وزيت الزيتون، وقريدس بالزيت والحامض".

"عظيم".

"تعال إلى المطبخ وساعدني. في هذه الأثناء أطرح عليك السؤال الأول: هل تستطيع قول Improcrastinabilità[1]؟".

"هل أنت أحمق؟ تجعلني أقطع المسافة الشاقة من مونتيلوزا إلى فيغاتا لتسألني إن كنت أستطيع قول كلمة؟ على كل حال، كما تريد، إنها سهلة جداً".

حاول ذلك ثلاث أو أربع مرات، وكل مرة بعناد أكبر، لكنه لم يستطع، وفي كل مرة تكون النتيجة أسوأ.

"تحتاج المهارة، الكثير من المهارة" قال المحقق وهو يفكر في ريتزو، ولم يقصد فقط موهبته بنطق الألعاب اللغوية بيسر.

---

١ Improcrastinabilità: يقترح عليها الكلمة لصعوبة نطقها بعد أن لفظها المحامي ريتزو على الهاتف. (م.)

تحدّثا وهما يأكلان كما يحدث دائماً. زيتو، بعد أن تذكّر القريدس الحلم الذي تذوقه قبل عشر سنوات في فياكّا، انتقد درجة الطهي وأعرب عن أسفه لافتقار كل شيء إلى البقدونس.

"كيف أصبحتم جميعاً في Reteliberà إنكليزاً؟" هاجم مونتالبانو بغتةً ودون سابق إنذار، بينما هما يشربان النبيذ الأبيض اللذيذ الذي عثر عليه والده بالقرب من راندادزو، وقبل أسبوع جاءه بستّ زجاجات كانت ذريعة لقضاء بعض الوقت معاً.

"إنكليز، بأي معنى؟".

"بمعنى حرصكم على عدم التشهير بلوباريللو كما كنتم لتفعلون في مناسبات أخرى بالتأكيد. ستفهم؛ يموت المهندس بنوبة قلبية في مكان أقرب إلى بيت دعارة في الهواء الطلق، بين العاهرات والقوادين والشواذ، بنطاله منسدل، وبهيئة مخزية صراحةً، وأنتم، عوض اغتنام الفرصة، تصطفون وتنشرون حجاباً من الشفقة حول طريقة موته".

"الاستغلال ليس من خصالنا" قال زيتو، فضحك مونتالبانو.

"هل تصنع لي معروفاً نيكولو؟ اذهب للتغوط أنت وReteliberà كلّها"

ضحك زيتو أيضاً.

"حسناً، الأمور سارت بهذه الطريقة؛ بعد ساعات قليلة من العثور على الجثة، المحامي ريتزو هرع إلى البارون فيلو دي باوتشينا، البارون الأحمر، ملياردير لكنه شيوعي، وتوسّل إليه بكفين أمام صدره، ألا تتحدث Reteliberà عن ملابسات الوفاة، مستنهضاً فيه روح الفرسان التي يبدو أنّ أسلاف البارون قد تحلّوا بها في العصور القديمة. وكما تعلم، فالبارون يملك ثمانين في المئة من محطتنا. وهذا كل شيء".

"كل شيء منيوك. وأنت، نيكولو زيتو، من حاز احترام حتى خصومه لأنه يقول دوماً ما يجب قوله، هل تستجيب للبارون، وتقعي".

"ما لون شعري؟" سأل زيتو في ردّه.

"إنه أحمر".

"مونتالبانو؛ أنا أحمر من الداخل والخارج، أنتمي للشيوعيين السيئين كما الثائرين، هو نوع يوشك على الانقراض. لقد وافقت مقتنعاً أن الذي قال بتخطّي ملابسات الوفاة أراد سوءاً وليس خيراً كما حاول أن يبدي".

"لم أفهم".

"سأشرح لك يا بريء. إن أردتَ لفضيحةٍ أن تُنسى بأسرع وقت فليس عليك إلا الحديث عنها بقدر استطاعتك في التلفزيون وفي الصحف. أخذ ورد، لت وعجن، وبعد

قليل سيبدأ الناس بتقيؤها، لكن إلى متى سيمطمطونها! ولم لا ينهونها؟ في غضون خمسة عشر يوماً، وبتأثير حالة الإشباع، لن يرغب أحد بعد ذلك في سماع شيء عن تلك الفضيحة. هل فهمت؟".

"أعتقد ذلك".

"بخلاف ذلك، إن فرضت الصمت فإنه سيولّد الكلام، وتبدأ الشائعات التي لا مجال لضبطها بالتزايد، ولن تنتهي بعد ذلك بل ستواصل النمو. تريد مثالاً؟ هل تعلم عدد المكالمات التي تلقيناها في مكتب التحرير، فقط بسبب صمتنا؟ المئات. هل صحيح أن المهندس والفتاة مارسا الجنس في السيارة مرتين؟ هل صحيح أنّ المهندس أراد صنع سندويتش، وبينما هو ينكح عاهرة كان رجل أسود يعمل به من الخلف؟ وآخرها هذه الليلة: هل صحيح أنّ لوباريللو كان يهدي عاهراته مجوهرات ثمينة؟ يبدو أنهم عثروا على واحدة في المنارة. بالمناسبة، هل تعرف شيئاً عن هذه القصة؟".

"أنا؟ لا. مؤكد أنه هراء" كذب المحقق بمنتهى الهدوء.

"هذا رأيك؟ أنا متأكد أنه خلال بضعة أشهر سيأتي أحمق ليسألني عن حقيقة أنّ المهندس كان يضاجع أطفالاً في سن الرابعة ثمّ يأكلهم محشوين بالكستناء. سيخلّد عاره، ويصير أسطورياً. والآن أرجو أن تكون قد فهمت لماذا أجبتُ بنعم

حين طلبوا إليّ التستّر".

"وموقفك من كاردا موني ما هو؟".

"لا أعرف. انتخابه بمنتهى الغرابة. أنت تعلم أن سكرتارية المقاطعة كانت كلها من رجال لوباريللو باستثناء اثنين تابعين لكاردا موني تمّ الاحتفاظ بهما كواجهة لإظهار أنهم ديموقراطيون. ولم يكن من شك أن السكرتير الجديد يمكن ويجب أن يكون من أتباع المهندس. لكن بالعكس كانت الصدمة؛ ينهض ريتزو ويقترح كاردوماني. الآخرون في الجماعة ذهلوا، غير أنهم لم يجرؤوا على الاعتراض، إن تحدث ريتزو بهذه الطريقة فهذا يعني أنّ ثمّة شيئاً خطراً في الخفاء سيحدث، ومن الأفضل اللحاق بالمحامي في ذلك الطريق. صوتوا لصالحه. استدعي كاردوماني، الذي قبل المنصب، واقترح بنفسه أن يكون ريتزو مساعده، مع شعور بخذلان كبير تجاه الاثنين من قبل ممثليهم في الأمانة. لكنني أفهم كاردوماني؛ من الأفضل أن يصعد المركب معه – هذا ما فكّر فيه – من أن يتركه إلى جواره خارج السيطرة".

ثمّ راح زيتو يخبره برواية يفكّر في أن يكتبها، وكانت قد صارت الساعة الرابعة فجراً.

***

بينما هو يتفقد حال نبتة العصاري التي أهدته إياها ليفيا ويحتفظ فيها على حافة النافذة في مكتبه، رأى مونتالبانو سيارة وزارية زرقاء تصل مع جهاز هاتف، وسائق، وحارس شخصي. كان الأخير أول من نزل ليفتح الباب لرجل قصير القامة، أصلع، يرتدي ملابس بلون السيارة ذاته.

"هناك شخص في الخارج قادم للتحدث إليّ، دعه يمرّ على الفور" قال للبواب.

حين دخل ريتزو لاحظ المحقق شريطاً أسود عريضاً يغطي الجزء العلوي من الكم الأيسر لسترته، كان المحامي قد جهز كل شيء للذهاب إلى مراسم الجنازة.

"ماذا عليّ أن أفعل لتغفروا لي؟".

"بشأن ماذا؟".

"لإزعاجكم في بيتكم في وقت متأخر من الليل".

"لكن المسألة، أنت قلت لي، أنها impro...".

"improcrastinabile، طبعاً".

كم هو ماهر، المحامي ريتزو!.

"سأدخل في صلب الموضوع. زوجان شابان من الأشخاص شديدي الاحترام بالمناسبة، في وقت متأخر من مساء الأحد الماضي، وبعد تناولهما القليل من المشروب، سمحا لنفسيهما بالمضي نحو صباح متهور. الزوجة أقنعت

زوجها أن يأخذها إلى المنارة، فضول كبير يعتريها حيال ذلك المكان وما يحدث فيه، فضولٌ مستهجن صحيح، لكن لا شيء أكثر من ذلك. وصل الزوجان حافة المنارة، نزلت الزوجة. لكنها سرعان ما استاءت من العروض المبتذلة التي قدمت لها فعادت إلى السيارة وغادرا. حين وصلا إلى البيت انتبهت أنها فقدت شيئاً ثميناً كانت ترتديه حول رقبتها".

"يا لها من توليفة غريبة" تمتم مونتالبانو كأنه يحدث نفسه.

"عفواً؟".

"كنت أفكر في الحقيقة أنه في الوقت نفسه تقريباً وفي المكان نفسه توفي المهندس لوباريللو".

لم ينزعج المحامي ريتزو، الذي أحاط نفسه بشيء من الحذر.

"أتعلم أنني لاحظت ذلك أيضاً؟ إنها سخرية القدر".

"هل الشيء الذي تخبرني عنه هو عقد من الذهب الخالص مع قلادة على هيئة قلب مغطاة بالأحجار الكريمة؟".

"إنها هي. لقد جئت أسألكم إعادتها إلى أصحابها الشرعيين، بالسرية ذاتها التي تم التعامل فيها مع العثور على مهندسي المسكين".

"أريد أن تعذرني" قال المحقق: "لكني لا أملك أدنى فكرة عن كيفية التحرك في قضية كهذه. على كل حال، أعتقد

أن كل شيء سيغدو مختلفاً فيما لو حضر المالك".

"لكنني أملك توكيلاً رسمياً".

"حقاً؟ هل أستطيع رؤيته؟".

"لا مشكلة أيها المحقق. ستعرفهما، لكنني أردت التأكد قبل أن أعلن أسماء وكيليّ، من أنها الشيء ذاته الذي يبحثان عنه".

دسّ يده في جيبه وأخرج الورقة. أعطاها لمونتالبانو. والمحقق قرأها بعناية.

"من هو جياكومو كاردامونى الموقّع على التوكيل؟".

"إنه نجل الأستاذ كاردامونى، سكرتير المقاطعة الجديد".

قرر مونتالبانو أنها اللحظة المناسبة لإعادة المسرحية.

"لكنه غريب حقاً!" علّق بصوت خفيض فارضاً جواً من الترقّب العميق.

"المعذرة، ماذا قلت؟".

لم يجب مونتالبانو حالاً، تاركاً الآخر يُطبَخ بهدوء في مرقه.

"كنت أفكر في أنه القدر، كما قلت حضرتك، يسخر أكثر بقليل من المعتاد في هذه القصة".

"عذراً، لكن بأي معنى؟".

"بمعنى أنّ نجل السياسي الجديد يحضر في الوقت ذاته والمكان عينه الذي يموت فيه السكرتير القديم، ألا يثير ذلك

فضولكم؟".

"الآن وبعد أن أشرت إلى الأمر نعم. لكني أستبعد جازماً وجود أدنى علاقة بين الحدثين".

"أنا أستبعد ذلك أيضاً" قال مونتالبانو، وتابع:

"لم أفهم التوقيع المجاور لتوقيع جياكومو كاردamوني".

"هو توقيع زوجته، إنها سويدية. امرأة متهورة بعض الشيء بصراحة، ولا تعرف كيف تتكيف مع عاداتنا".

"باعتقادك؛ كم تساوي تلك الجوهرة؟".

"لا خبرة لي بذلك، أصحابها تحدثوا إليّ عن ثمانين مليوناً".

"إذاً دعنا نقوم بالتالي؛ سأتصل لاحقاً بالزميل جاكوموتزي، حالياً هي موجودة معه، وسأطلب إليه أن يعيدها إلي. غداً صباحاً أرسلها مع أحد عناصري إلى المكتب".

"أنا لا أعرف حقاً كيف أشكرك...".

قاطعه مونتالبانو:

"حضرتك سترسل لي من العنصر إيصالاً نظامياً بالاستلام".

"بالتأكيد".

"وشيكاً مصرفياً بعشرة ملايين، لقد سمحت لنفسي بتخمين القيمة التقريبية للقلادة، وهي النسبة المستحقة لمن يعثر على شيء ثمين أو نقود".

تلقى ريتزو الصدمة بشيء من الدماثة.

"أجد ذلك عادلاً. ولمن أجعل الشيك واجب الدفع؟".

"لبالداسّاري مونتابيرتو. واحد من الزبالين الاثنين اللذين عثرا على جثة المهندس".

سجّل المحامي الاسم بدقّة.

-٩-

لم يكد ريتزو يغلق الباب حتى كان مونتالبانو قد طلب فعلاً رقم منزل نيكولو زيتو. ذاك الذي قاله المحامي للتوّ ولّد لديه آلية التفكير التي بدت ظاهرة بشكل ملموس دافعةً برغبته الشديدة إلى التصرف. أجابته زوجة زيتو.

"لقد خرج زوجي للتو، إنه متوجه إلى باليرمو".

ثمّ ثارت شكوكها:

"لكن ألم يمكث معك الليلة؟".

"طبعاً سيدتي، غير أنّ شيئاً بالغ الأهمية خطر لي فقط هذا الصباح".

"انتظر، ربما أستطيع إيقافه، سأكلّمه عبر الجهاز الداخلي".

بعد قليل، سمع اللهاث أولاً، ثم صوت صديقه:

"لكن ما الذي تريده، ألم يكفك الليل؟".

"أحتاج معلومات".

"إن كانت مختصرة".

"أريد أن أعرف كل شيء، كل شيء تماماً، حتى أكثر الشائعات غرابة حول جياكومو كاردوماني وزوجته، التي يبدو أنها سويدية".

"ماذا؟ يبدو؟ قامة بطول متر وثمانين سنتيمتراً، شقراء، ساقان لا بأس بهما، وكذلك الصدر! إن كنت ترغب في معرفة كل شيء فالأمر يتطلب وقتاً لا أملكه. اسمع؛ سنقوم بالتالي: سأغادر، وخلال الرحلة سأفكر في كل شيء وأقسم أن أرسل لك المعلومات عبر الفاكس بمجرد وصولي".

"إلى أين سترسلها؟ إلى مركز الشرطة؟ نحن هنا ما زلنا نتبع حمام الزاجل وإشارات الدخان".

"إذاً أرسل الفاكس إلى مكتب التحرير في مونتيلوزا، تجيء أنت خلال هذا النهار، وقت الغداء للحصول عليه"..

***

كان عليه التصرف بطريقة ما، خرج من المكتب وقصد غرفة الرقيب.

"كيف هو تورتيللا؟".

التفت فاتزو إلى مكتب زميله الفارغ.

"ذهبت أمس لرؤيته. يبدو أنهم قرروا مغادرة المستشفى

يوم الاثنين".

"هل تعرف طريقةً لدخول المصنع القديم؟".

"حين قاموا ببناء السور، بعد إغلاق المصنع، وضعوا له باباً من نوع nica nica الذي يتعين فتحه سحباً للدخول، وهو مصنوع من الحديد".

"من يملك المفتاح؟".

"لا أعرف، لكني أستطيع الحصول على المعلومة".

"لا أريدك أن تحصل على المعلومة فقط، بل أريد المفتاح في الصباح".

عاد إلى مكتبه واتصل بجاكوموتزي الذي يجعله ينتظر قبل أن يجيب أخيراً.

"هل تعاني من الزحار؟".

"قل، ماذا تريد مونتالبانو؟".

"ماذا وجدت بشأن القلادة؟".

"ماذا تريديني أن أجد؟ لا شيء. أو بالأحرى، بصمات أصابع، نعم، لكنها كثيرة جداً ومتداخلة ويصعب تحليلها، ماذا عليّ أن أفعل بشأنها؟".

"أرسلها إلي اليوم. اليوم؛ هل تفهم؟".

من الغرفة المجاورة تناهى صوت فاتزيو مختلفاً:

"باختصار، لا أحد يعرف إلى من يعود مصنع الكيميائيات؟

لا بد من وجود حارس، أو بوّاب!".

وبمجرد رؤيته لمونتالبانو يدخل:

"يبدو أنه من الأسهل جداً الحصول على مفاتيح سان بييترو".

أخبره المحقق أنه خارج وسيعود في غضون ساعتين على أبعد تقدير، وعند عودته يريد رؤية المفتاح على طاولته.

***

بمجرد رؤيته يدخل عند العتبة شحبت زوجة مونتابيرتو ووضعت يدها على قلبها.

"أوه، سيدي، شو في؟ شو صار؟".

"لا شيء يستوجب قلقكِ. بالعكس، أظن أنني أحمل أخباراً جيدة. هل زوجك في المنزل؟".

"إي إي، اليوم رجع بكير".

طلبت إليه المرأة أن يستريح في المطبخ، وذهبت لمناداة سارو الذي كان في الفراش في غرفة النوم جوار الطفل يحاول جعله يغمض عينيه ولو لفترة وجيزة.

"اجلسا" قال المحقق: "وأَصغيا إليّ جيداً. أين كنتما تنويان أخذ ابنكما بالمال الذي كنتما ستحصلان عليه من رهن القلادة؟".

"إلى بلجيكا" أجاب سارو على الفور: "هناك راهب قال إنه سيستضيفنا في البيت لبعض الوقت".

"وهل تملكان المال اللازم للرحلة؟".

"شلنا من العضم، معنا شوي على جنب".

قالت المرأة دون أن تفقد لفتة الكبرياء.

"لكنها تكفي للرحلة فقط" أضاف سارو.

"جيد جداً. اليوم تحديداً ستذهب أنت إلى المحطة وتحصل على التذاكر. بالأحرى خذ الباص واذهب إلى راكّادالي، هناك يوجد مكتب سفريات أليس كذلك؟".

"إي إي. بس ليش بدي روح حتى راكّادالي؟".

"لا أريدهم في فيغاتا أن يعرفوا ما تعزم على القيام به. في هذه الأثناء تقوم السيدة بتحضير الأشياء التي ستحملونها معكم. لا تخبر أحداً إلى أين أنت ذاهب، ولا حتى أفراد العائلة. واضح؟".

"واضح جداً بهالخصوص. بس ما تواخذني محقق، وين الغلط بالروحة على بلجيكا لعلاج ابننا؟ عم تطلب مني كتير شغلات إعملها، وكأنو في شي مخالف للقانون!".

"سارو؛ أنت بكل تأكيد لا تفعل شيئاً مخالفاً للقانون. أنا أريد لأشياء كثيرة أن تكون آمنة، ثق بي ولا تفعل غير ما أطلبه منك".

"حسناً، بس يمكن نسيت، ماذا سنفعل في بلجيكا إذا كانت

النقود تكفي لنروح وليس لنرجع؟ رحلة؟".

"سيكون لديكما ما يكفي من المال. غداً صباحاً سيجيئكما أحد عناصري بشيك مصرفي بعشرة ملايين".

"عشرة ملايين؟ ليش؟" علّق سارو وقد انقطع نفسه.

"إنها حقك. النسبة المئوية من القلادة التي عثرت عليها وأعطيتني إياها. هذه الأموال يمكنك إنفاقها على راحتك دونما مشكلة. بمجرد حصولك على الشيك اذهب اصرفه، وغادر".

"من مين الشك؟".

"من المحامي ريتزو".

"أه" قال سارو وأومأ برأسه.

"لا تقلق، الأمر قانوني وهو بين يديّ. لكن يفضّل اتخاذ جميع الاحتياطات الواجبة، لا أريد أن يتصرف ريتزو كالعرصات الذين يحاولون التحايل بعد ذلك. عشرة ملايين تساوي دائماً عشرة ملايين".

***

أخبره جيالومباردو أنّ الرقيب ذهب للحصول على مفتاح المصنع القديم ولن يعود قبل ساعتين: المشرف على المبنى ليس بصحة جيدة، وهو يعيش مع ابنه في مونتيدورو. أبلغه العنصر أيضاً أنّ القاضي لو بيانكو اتصل يبحث عنه، وأنه سيعاود

الاتصال به عند العاشرة.

"آه، أيها المحقق، جيد. أنا خارج الآن، ذاهب لحضور الجنازة. أعرف أنني سأتعرض للهجوم، هجوم حرفيّ، من قبل شخصيات بارزة سيسألونني جميعاً السؤال ذاته. أتعرف ما هو؟".

"لماذا لم تقفل قضية لوباريللو حتى الآن؟".

"لقد حزرت أيها المحقق، والأمر ليس مزحة، لا أريد استخدام كلام كبير، ولا أرغب إطلاقاً في أن يساء فهمي... باختصار، إن كان بين يديك دليل ملموس فامضِ قدماً، أو فأغلقها. من ناحية أخرى، واسمح لي، أنا لم أستطع بعدُ معرفةَ ما الذي تودّ اكتشافه؟ المهندس مات ميتةً طبيعية، وأنت تتلكأ، يبدو لي كما فهمت، فقط لأن المهندس ذهب ليموت في المنارة؛ لو أنّ لوباريللو تمّ العثور عليه على جنب الطريق هل كنت ستجد ما تعترض عليه؟ أجب".

"لا".

"إذاً إلى أين تريد الوصول؟ القضية يجب أن تغلق بحلول الغد. مفهوم؟".

"لا تغضب سيدي القاضي".

"أنا غاضب، أجل، لكن من نفسي. أنت تجعلني أستخدم كلمة قضية، وهي ليست الكلمة المناسبة. بغضون الغد، واضح؟".

"نستطيع تمديد الأمر حتى يوم السبت؟".

"أين نحن؟ في سوق للمساومة؟ حسناً. لكن إن تأخرت ساعة واحدةً فسأخضعك شخصياً للمساءلة".

***

التزم زيتو بكلمته. سلّمه رئيس التحرير في Reteliberà الفاكس الواصل من باليرمو، وقرأه مونتالبانو بينما هو يقود باتجاه المنارة.

السيد جياكومو مثال كلاسيكي عن ابن الأب، شديد التمسك بالقدوة دون أي نزعة للجموح. الأب معروف بأنه رجل نبيل، باستثناء عيب سأتحدث عنه لاحقاً، بخلاف المرحوم لوباريللو. جياكومينو[1] يعيش مع زوجته الثانية، إنغريد سيوستروم، التي أوضحتُ صفاتها بالفعل، في الطابق الأول من قصر العائلة. سأقدم لك لائحة بصفاته التي أذكرها على الأقل. إنه جاهل كرأس اليقطين، لم تكن لديه أبداً الرغبة في دراسة ولا تطبيق أي شيء ما لم يكن الاختبار المبكر للفرج، ورغم ذلك تمّت ترقيته دوماً بعلامات تامّة

[1] جياكومينو: صيغة التصغير لاسم جياكومو. (م.)

بفضل تدخلات الأب الروحي (أو الأب ببساطة أكثر). لم يلتحق بالجامعة مطلقاً رغم تسجيله في كلية الطب (وهذا أفضل لصحّة الشعب). في السادسة عشرة من عمره، وأثناء قيادته سيارة والده الرسمية، صدم وقتل طفلاً في الثامنة من العمر. بطبيعة الحال لم يدفع جياكومينو، بل دفع الأب على الفور لعائلة الطفل. في عمر النضوج أسس شركةً للخدمات. أفلست الشركة بعد عامين ولم يخسر كاردا موني ليرةً واحدة، وشريكه المؤقت أطلق النار على نفسه، فيما جرى بغتة نقل ضابط الحراسة، الذي أراد الوقوف بوضوح على ما جرى، من فينانزا إلى بولزانو. حالياً يتعامل بالمنتجات الصيدلانية (تخيل! لديه أب يعمل كزعيم) وهو ينفق، وينفق، بما يفوق دخله المحتمل بكثير.

شغوف بسيارات السباق والخيول. أسّس (في مونتيلوزا) نادي Polo–Club حيث لم يحضر قطّ أي مباراة من رياضة النبلاء تلك، لكنّه بالمقابل، اشتمّ أنها مذهلة.

إن كان عليّ التعبير بصدق عن حكمي على شخصيته سأقول إنه مثال رائع عن الأوغاد السفلة الذين

يترعرعون حيث يوجد أب ذو نفوذ وثري. في الثانية والعشرين عقد قرانه (يقولونها هكذا أليس كذلك؟) على ألبامارينا كوللاتينو (أصدقاؤها ينادونها، بابا) برجوازية رفيعة المستوى من تجّار باليرمو. بعد عامين، قدّمت بابا التماساً لإبطال رابط الزواج المقدس إلى Sacra Rota[1] مدعّمة إياه بحجّة العجز الجنسي الواضح للزوج. لقد نسيت؛ في الثامنة عشرة، أي قبل زواجه بأربع سنوات، تسبب جياكومينو بحبل ابنة أحد الخدم، وهذه الحادثة المؤسفة، كالعادة، تمّ كتمانها بقدرة قادر. هناك احتمالان: إما كذبت بابا، وإما كانت ابنة الخادم تكذب. وبحسب الرأي الذي لا يقبل جدالاً لكبار الأساقفة الرومان، من كان يكذب هو الخادمة (كيف تخطئ؟). جياكومينو لم يكن قادراً على الإنجاب (ويجب شكر العليّ القدير على ذلك). بعد حصولها على التفريق، خطبت بابا لابن عم لها كانت على علاقة به بالفعل، بينما جياكومو توجه إلى بلاد الضباب في الشمال لينسى.

في السويد، حضر نوعاً من السباق للدراجات النارية بالغ الصعوبة لإجرائه عبر طريق متعرج بين البحيرات

---

١ Sacra Rota: المحكمة العادية للكرسي الرسولي المعنية بالبت في طلبات التفريق وإبطال الزيجات. (م.)

والمنحدرات الصخرية والجبال. الفائزة كانت بقامةٍ كالرمح، شقراء، متخصصة بالميكانيك، واسمها تحديداً، إنغريد سيوستروم. ماذا أقول لك عزيزي لأتجنب حبكة المسلسلات التلفزيونية؟ حب من النظرة الأولى، وزواج. وهما يعيشان معاً منذ خمس سنوات. وبين حين وآخر تعود إنغريد إلى موطنها وتشارك بسباق دراجات. تخون زوجها مع سويديين ببساطة وبمنتهى الثقة بالنفس. في أحد الأيام، خمسة من السادة (إذا جاز التعبير) كانوا يلعبون لعبة جماعية في Polo–Club. من بين أمور أخرى تم طرح سؤال: من لم يضاجع إنغريد فلينهضْ. بقي الخمسة جالسين. ضحكوا كثيراً، وبخاصة جياكومو الذي كان حاضراً دون أن يشارك في اللعبة. تسري شائعة لا يمكن ضبطها، أن الأستاذ الرصين كاردamoني الأب غمس الخبز في صحن كنّته. وهذا سيكون العيب الذي ذكرته لك في البداية. لا شيء آخر تبادر إلى ذهني. أتمنى أن تكون ثرثرةً كما ترغب.

نيكولا

***

وصل المنارة قرابة الثانية ولم يكن ثمّة أثر لمخلوق. قفل البوابة الحديدية كان مغطى بالملح والصدأ. لقد توقّع ذلك فتحسب للأمر وأحضر معه بخاخ الزيت المستخدم لتشحيم الأسلحة. عاد إلى السيارة بانتظار أن يبدأ أثر الزيت بالعمل، وأدار الراديو.

الجنازة – قال متحدث المحطّة المحلية – بلغت ذروةً من الشحن العاطفي، حتى إنه في لحظة معينة شعرت الأرملة بالإعياء وتوجب إسنادها من ذراعيها. خطب الرثاء ألقيت بالترتيب: الأسقف، السكرتير الوطني للحزب، السكرتير الإقليمي، الوزير بيلليكانو بصفته الشخصية لكونه كان صديقاً دائماً له. حشد مؤلف من ألفي شخص على أقل تقدير في باحة الكنيسة ينتظرون خروج النعش لينفجروا بتصفيق حارّ وحزين.

"حارّ، فهمنا. لكن كيف يكون التصفيق حزيناً؟" تساءل مونتالبانو. أغلق الراديو، وذهب لتجربة المفتاح. دار المفتاح لكن البوابة بدت كأنها متجذرة في الأرض. راح يدفعها بكتفه ليحصل أخيراً على شقّ ضيق بالكاد يستطيع المرور عبره. البوابة كانت مسدودة بالركام، قطع الحديد، الرمل، من الواضح أن الحارس لم يحضر منذ سنوات. أدرك أن جدران الحماية كانا اثنين: جدار للحماية مع بوابة الدخول، وآخر شبه مدمّر كان يحيط بالمصنع حين كان يعمل. عبر فجوات في الجدار الثاني يمكن رؤية آلات صدئة، أنابيب ضخمة مستقيمة تارة وملتوية

تارة أخرى، خزانات عملاقة، سقالات حديدية مع شقوق كبيرة، ملابن أبواب معلّقة بطريقة عجيبة، أبراج فولاذية ارتفعت مائلة بما ينافي المنطق. وفي كلّ مكان الأرضيات محفّرة والأسقف مهبّطة، الألواح الحديدية التي كانت تغطي مساحات واسعة بدت محطّمة الآن وآيلة للسقوط إلى أسفل حيث لم يبقَ سوى كتلة خرسانية متهالكة نبتت بين شقوقها أعشاب مصفرة. وقف مونتالبانو في الصدع الذي شكّله الحائطان مفتوناً بما يرى، فإن كان شكل المصنع من الخارج يثير إعجابه فقد أشعره من الداخل بالنشوة، وندم لعدم إحضاره الكاميرا معه. شتته عن ذلك إدراكه صوتاً خافتاً متواصلاً، هو نوع من الأزيز الذي يبدو مصدره من داخل المصنع.

"ما هذا الذي يعمل في الداخل هنا؟" تساءل مرتاباً.

فكّر في أنه من الأفضل الخروج، الذهاب إلى السيارة، يفتح الصندوق ويسلّح نفسه. تقريباً هو لم يحمل المسدس معه قطّ، كان يشعر بأن ثقل المسدس يشوه هيئة بنطاله وسترته. عاد الصوت المتواصل من داخل المصنع. بحذر بدأ السير باتجاه الجانب الذي دخل منه. الرسم الذي وضعه سارو كان دقيقاً جداً وبمثابة الدليل. الصوت كان شبيهاً بالطنين الذي يصدر عن أسلاك الجهد العالي حين تصيبها الرطوبة غير أنه أكثر تنوعاً وموسيقية، يتوقف للحظات ليعود بعد فترة وجيزة بوتيرة أخرى.

كان يمشي متأهباً، حذراً ألا يتعثر بالحجارة والركام التي شكلت أرضية الممر الضيق بين الجدارين، حين لمح بطرف عينه، عبر فجوة، رجلاً يتحرك بشكل مواز له داخل المصنع. تراجع للخلف واثقاً أن الآخر قد رآه. لم يكن ثمّة وقت يضيعه، مؤكد وجود شركاء مع الرجل، قفز للأمام مشهراً سلاحه، صارخاً: "قف، شرطة".

فهم في جزء من الثانية أن الآخر كان ماكثاً ينتظر حركته، وهو في الحقيقية منحنٍ إلى الأمام، يقبض على مسدس. أطلق مونتالبانو النار بينما هو يرتمي أرضاً، وقبل أن يبلغ الأرض أطلق رصاصتين أخريين. بدلاً من سماع ما كان ينتظره، رصاصة من الناحية الأخرى كجواب، أو أنين، أو خطوات تهرع هاربةً، سمع صوت انفجار مدوّ تلاه صوت تحطم زجاج. فهم بغتةً، وانتابته ضحكة عنيفة منعته من النهوض: لقد أطلق النار على نفسه، على انعكاس صورته في مرآة ضخمة متبقية هناك مغبشة وقذرة.

"لا يمكنني أن أروي ذلك لأحد" قال لنفسه: "كانوا ليطالبوني بالاستقالة، ويطردوني من الشرطة ركلاً على مؤخرتي".

حالاً بدا له السلاح الذي في يده تافهاً، دسّه في حزام بنطاله. الرصاصات، وصداها الطويل، مع تحطم وتكسّر

الزجاج حجبت الصوت الذي استؤنف الآن بتنوّع أكبر. فهم عندئذ. كانت الريح التي كل يوم، حتى في الصيف ربما، تضرب ذلك الامتداد من الشاطئ، والتي تنبح في المساء كأنها لا تريد تعكير صفو أعمال جيجيه. الريح تنسلّ بين الإطارات المعدنية، الأسلاك المقطّعة أو التي ما تزال ممدودة جيداً، المداخن بثقوبها الشبيهة بفتحات الناي، فتعزف تهويدتها داخل المصنع الميت، والمحقق مكث ليصغي مسحوراً. للوصول إلى النقطة التي أشار إليها سارو استغرق الأمر قرابة نصف ساعة، واضطر في نقاط معينة إلى تسلق تلالٍ من الأنقاض. فهم أخيراً أنه بات في ذروة المكان الذي عثر فيه سارو على القلادة ما وراء الجدار. بدأ يتلفّت حوله بهدوء. صحف ومزق من أورق مصفرّة بفعل الشمس، أعشاب، عبوات كوكا كولا (العبوات كانت خفيفة جداً لتتجاوز جداراً بهذا الارتفاع)، زجاجات نبيذ، عربة معدنية محطّمة، بعض الأغطية، قطع من الحديد، أشياء غير مفهومة، دعامة خشبية عفنة. إلى جوار الدعامة حقيبة جلدية، أنيقة، جديدة جداً، وموقّعة، بدت نشازاً، غير منسجمة مع الخردة المحيطة بها. فتحها مونتالبانو. وجد داخلها حجرين كبيرين، من الواضح أنهما وضعا فيها بمثابة ثقل لتمكين الحقيبة من سلك المسار الصحيح من خارج الجدار إلى الداخل. لا شيء آخر. تفحص

الحقيبة جيداً، الأحرف المعدنية لاسم المالك كانت منزوعةً، غير أنّ آثارها ما تزال في الجلد، الحرف الأول: إ والثاني: س. إنغريد سيوستروم.

"يقدمونها لي على طبق من فضة" فكّر مونتالبانو.

-١٠-

فكرة تقبل الطبق المعروض، بكل ما يمكن أن يحتويه، بمنتهى اللطف جاءته وهو يعتصر نفسه أثناء تناوله كميّةً سخية من الفليفلة المشوية التي تركتها آديلينا في الثلاجة. بحث في دليل الهاتف عن رقم جياكومو كاردوماني، إنه الوقت المناسب للعثور على السويدية في المنزل.

"أنت مَن؟ وماذا يريد؟".

"أنا جيوفانّي، إنغريد موجودة؟".

"أنا أنظر. أنت انتظر".

حاول فهم من أيّ جزء من العالم اقتحمت هذه الخادمة منزل كاردوماني، لكنه لم يفهم.

"تشاو يا وحش، كيف حالك؟".

الصوت كان خافتاً وأجشّ بما يتوافق مع المواصفات التي أعطاه إياها زيتو، لكن لم يكن للكلمات أي تأثير جنسي على

المحقق، بل على العكس من ذلك، جعلته يتذمّر: من بين جميع الأسماء في الكون لم يذهب إلا لاختيار ذاك الذي يعود إلى رجل تعرف إنغريد جيداً مقاسات أعضائه.

"هل ما زلت هنا؟ هل نمت واقفاً؟ كم مرّة ضاجعتَ اليوم أيها الخنزير الصغير؟".

"اسمعي سيدتي...".

رد فعل إنغريد كان سريعاً، ملاحِظةً دون أي دهشة أو غضب:

"لستَ جيوفانّي".

"لا".

"من أنت إذاً؟".

"أنا محقق من الأمن العام، اسمي مونتالبانو".

انتظر سؤالاً مزعجاً، وسرعان ما خاب أمله.

"أوه؛ كم هو جميل، شرطي! ماذا تريد مني؟".

حافظت على الصيغة غير الرسمية في المخاطبة، ربّما لأنها تتحدث إلى شخص لا تعرفه. مونتالبانو قرر مجاراتها.

"أريد تبادل بضع كلمات معكِ".

"اليوم عصراً لا أستطيع، لكن هذه الليلة أنا حرّة".

"حسناً، موافق، هذه الليلة".

"أين؟ هل أجيء إليك في المكتب؟ قل لي أين".

"الأفضل لا، أفضّل مكاناً أكثر سرية".

صمتت إنغريد للحظات.

"غرفة نومك؟" صار صوت المرأة مستاءً. من الواضح أنها بدأت ترتاب بأن الشخص على الطرف الآخر من الخط شخص أحمق يحاول التقرب.

"اسمعي سيدتي. أفهم حذرك، وأنت محقة بذلك. لنفعل التالي: خلال ساعة سأكون في مركز الشرطة في فيغاتا، يمكنك الاتصال بي هناك والسؤال عني. جيد؟".

لم تجب المرأة حالاً، بقيت تفكر، ثم قررت:

"أصدقك أيها الشرطي. أين وفي أي ساعة؟".

اتفقا على المكان فوراً، مقهى مارينيلّا، الذي في الساعة المحددة، العاشرة ليلاً، سيكون خالياً بالتأكيد. نصحها مونتالبانو ألا تخبر أحداً بأي شيء، حتى زوجها.

***

فيلّا لوباريللو تقع عند مدخل مونتيلوزا القادم من ناحية البحر. مبنى بالغ الضخامة يعود للقرن التاسع عشر محاط بحائط مرتفع يسوره، وفي وسطه فتحت الآن على مصراعيها بوابة حديدية مزخرفة. مشى مونتالبانو في الممر الذي تصطفّ الأشجار عن كلا جانبيه والذي يقطع جزءاً من الحديقة. وصل إلى بوّابة نصف مغلقة، شريط أسود كبير معلق على إحدى الدرفتين. انحنى لينظر

إلى الداخل؛ في الردهة، الشاسعة إلى حد ما، كان هناك قرابة العشرين شخصاً بين رجال ونساء، وجوه متجهمة، وهمهمات بأصوات خافتة. لم يبدُ له ملائماً المرور بين الناس، أحدٌ ما قد يتعرف إليه ويبدأ التساؤل عن سبب وجوده هناك. بدأ يجول حول الفيلا، وأخيراً عثر على باب خلفي مغلق. قرع الجرس، وتوجب عليه فعل ذلك أكثر من مرة قبل أن يأتي أحدهم ليفتح.

"أنت مخطئ. الزيارات بغرض التعزية من الباب الرئيسي" قالت الخادمة الصغيرة المتنبهة. كانت ترتدي مئزراً أسود مع شريط الدانتيل الأبيض الذي جعلها تبدو مؤهلةً لا تنتمي لفئة الخدم الطارئين.

"أنا المحقق مونتالبانو. هلا أخبرت أحد أفراد العائلة أنني وصلت؟".

"إنهم بانتظارك سيدي المحقق".

قادته عبر ممر طويل، فتحت له باباً، ودعته للدخول. وجد مونتالبانو نفسه داخل مكتبة كبيرة، آلاف الكتب مرتبة جيداً، ومنسقة فوق رفوف ضخمة. مكتب ضخم في إحدى الزوايا، وبالمقابل غرفة جلوس راقية وأنيقة، طاولة صغيرة، وكنبتان. على الجدران هناك خمس لوحات، وبلمحة خاطفة من عينيه تعرف مونتالبانو على الرسامين بشيء من الحماسة؛ المزارع لغوتوسو من أربعينيات القرن الماضي، منظر طبيعي لميللي،

دمار لمافاي، مجدّفان في نهر تيفيري لدونغي، مستحمّة لفاوستو بيرانديللو. ذائقة فاخرة، اختيارات بكفاءة نادرة. فتح الباب وظهر رجل ثلاثيني، ربطة عنق سوداء، وجه بشوش، أنيق.

"أنا من اتصلت بك. شكراً لحضورك، لدى أمي رغبة كبيرة في لقائك. اعذرني على كل الإزعاج الذي تسببت به لك". كان يتحدث دون أي لكنة.

"لا داعي للاعتذار، ليس هناك أي إزعاج. فقط أنا لا أعرف كيف يمكنني أن أفيد والدتك".

"هذا ما قلته لها فعلاً، لكنها مصرّة. ولم ترغب في أن تخبرني أي شيء حول سبب رغبتها في إزعاجكم أيها المحقق".

كما لو أنه يراهم للمرّة الأولى، نظر إلى أطراف أصابع كفه اليمنى، ونحنح صوته هامساً:

"لتكن عطوفاً، سيدي المحقق".

"لم أفهم".

"لتكن عطوفاً مع أمي، لقد اختُبرت بقسوة".

تحرك ليخرج، لكنه توقف فجأة.

"آه، أيها المحقق، أود أن أخبرك كيلا تجد نفسك في موقف محرج. أمي تعرف كيف توفي أبي وأين. كيف علمت لا أعرف. لكنها بالفعل كانت على علم بالأمر بعد ساعتين من العثور عليه. أستأذنك".

شعر مونتالبانو أنّ حملاً أزيح عن كاهله، فإن كانت الأرملة على علم بكل شيء لن يكون مضطراً إلى اللف والدوران لإخفاء الحالة المخزية لوفاة زوجها. عاد للاستمتاع باللوحات. في منزله في فيغاتا لديه فقط رسومات ومنحوتات لكارماسّي، أتّاردي، غويدا، كورديو، وآنجيلو كانيفاري، وقد حصل عليها بادخار بالغ القسوة من راتبه المسكين الذي لم يسمح له بالمضي أبعد من ذلك. لوحة من هذه السويّة سيكون عليه التسوّل للحصول عليها.

"تعجبك؟".

استدار بغتةً، لم يكن قد شعر بالسيدة تدخل. امرأة متوسطة الطول، جاوزت الخمسين، بهيئة حازمة، التجاعيد الدقيقة في وجهها لم تفسد بعد جمال ملامحها، بل بالعكس من ذلك، إنها تمنح سحراً أكبر لعينيها الخضراوين، الحادتين.

"تفضّلْ بالجلوس" وذهبت لتجلس على الأريكة بينما المحقق يأخذ مكانه على الكنبة. "لوحات جميلة. أنا لا أفهم الرسم، لكنني أحبها، كان هناك ثلاثون منها متوزعة في أرجاء المنزل، اشتراها زوجي، الرسم كان عادته السرية، أحبُّ توصيفه بهذه الطريقة. للأسف لم تكن الوحيدة".

"بداية موفقة" فكّر مونتالبانو وسألها:

"هل تشعرين بحال أفضل سيدتي؟".

"أفضل مقارنةً بمتى؟".

ارتبك مونتالبانو، وبدا كأنّه في مواجهة مدرّس يطرح عليه اختباراً صعباً.

"آه، لا أدري، مقارنةً بهذا الصباح مثلاً... لقد سمعت أنّكِ في الكاتدرائية انتابك شيء من الإعياء".

"إعياء؟! كنتُ بخير، بما يتوافق تماماً مع الموقف. حسناً، صديقي العزيز، لقد تظاهرتُ بالإغماء، أنا ماهرة. في الحقيقة خطرت لي فكرة، وقلتُ لنفسي: لو أنّ إرهابياً فجّر الكنيسة ونحن جميعاً داخلها، فإنّ عِشرَ النفاق المنتشر في العالم، على الأقل، سيختفي معنا. لذا سمحت لنفسي بالخروج".

لم يعرف مونتالبانو ماذا يقول، أبهرته صراحة المرأة، وانتظر أن تواصل حديثها.

"حين شرح لي أحد الأشخاص أين تمّ العثور على زوجي اتصلتُ بالمفوّض وسألته عمّن يتولى التحقيقات، إن كان ثمّة تحقيقات. المفوّض أعطاني اسمك، مضيفاً أنك شخص محترم. أنا كنت قد فقدت الثقة بذلك، هل ما يزال فعلاً هناك أناس محترمون؟ لذا اتصلت بك".

"لا يسعني إلّا أن أشكرك سيدتي".

"لسنا هنا لتبادل المجاملات. لا أرغب في تضييع الوقت. هل أنت واثق أنها ليست جريمة قتل؟".

"تمام الثقة".

"إذاً ما سبب ترددك؟".

"تردد؟".

"نعم عزيزي، لا بدّ أن لديك البعض منه. وإلا فلا مبرر لإحجامك عن إغلاق التحقيق".

"سيدتي، سأكون صريحاً. الأمر متعلق فقط بانطباعات. انطباعات ليس عليّ ولا أستطيع السماح لنفسي بتجاهلها. بمعنى، إن كانت ميتة طبيعية فواجبي سيكون شيئاً آخر. إن لم يكن لدى حضرتكِ أي جديد تخبرينني به فأنا هذه الليلة تماماً سأبلغ قاضي التحقيق...".

"لديّ جديد أبغلك إياه".

صمتَ مونتالبانو.

"لا أعرف ما هي انطباعاتك" تابعت السيدة: "ستخبرني إياها. سيلفيو كان رجلاً لمّاحاً وطموحاً، إن كان قد بقي في الظل لسنوات فهو فعل ذلك وفق مخطط دقيق؛ للحضور تحت دائرة الضوء في اللحظة المناسبة. هل يمكنك الآن التصديق أن هذا الرجل، بعد كل الوقت الذي استغرقه بمنتهى الصبر في مناوراته للوصول إلى حيث يريد، يقرر في أمسية جميلة الذهاب رفقة امرأة، هي بكل تأكيد من الرعاع، إلى مكان مشبوه يمكن لأي كان التعرف إليه فيه، وابتزازه ربّما؟".

"هذه سيدتي واحدة من أكثر النقاط التي تركتني متردداً".

"هل تريد المزيد؟ أنا قلت امرأة من الرعاع، وأودّ أن أوضح أنني لم أشر لا إلى عاهرة ولا إلى امرأة مأجورة بطبيعة الحال. لا أستطيع تفسير الأمر جيداً. سأقول لك شيئاً: فور زواجنا أسرّ لي سيلفيو أنّه لم يرافق عاهرة طوال حياته، ولم يقصد قطّ في يوم من الأيام بيت دعارة، حتى عندما كانت تلك البيوت ما تزال مسموحة. شيء ما كان يمنعه. ولذا يحضرني التساؤل عن نوع المرأة التي، بغض النظر عن كل شيء، أقنعته أن يقيم علاقة معها في ذلك المكان المريع".

مونتالبانو أيضاً لم يذهب يوماً رفقة عاهرة، أملَ ألا تحمل الاكتشافات الجديدة حول لوباريللو نقاطاً أخرى مشتركة بينه وبين رجل لا يملك أيّ رغبة في اقتسام الخبز معه.

"كما ترى، انغمس زوجي في رذائله، لكنه لم يملك قطّ الرغبة في تدمير نفسه والانجراف نحو القاع، بحسب ما كان يقول كاتبٌ فرنسي. ضاجع عشيقاته بسريّة في منزلٍ صغير كان قد بناه، وليس باسمه، وهو عند أطراف كابو ماسّاريا. لقد علمت بذلك من صديقةٍ خيّرة".

نهضت، ذهبت إلى المكتب، نبشت أحد الأدراج، وعادت للجلوس مع مغلّف أصفر كبير، سلسلة معدنية مع مفتاحين، وعدسة مكبرة. دفعت بالمفاتيح إلى المحقق.

"بالنسبة إلى هذا الأمر، كان ممسوساً بما يخصّ المفاتيح، امتلك دوماً نسختين منها، واحدة يحتفظ بها في ذلك الدرج والأخرى تبقى بحوزته دائماً. حسناً، هذه المجموعة الأخيرة من المفاتيح لم يُعثَر عليها".

"ألم تكن في جيب المهندس؟".

"لا. حتى إنها لم تكن في المكتب الهندسي. ولم يُعثَر عليها حتى في المكتب الآخر، ذاك الذي يصفونه بالمكتب السياسي. لقد اختفت، تبخّرت".

"ربّما أضاعها في الطريق. إن لم يقل إنها سرقت".

"هذا غير ممكن. كما ترى، لدى زوجي ستّ علّاقات من المفاتيح، واحدة لهذا البيت، واحدة للمنزل الريفي، واحدة للبيت البحري، واحدة للمكتب، واحدة للاستديو، وواحدة للجوارير. وقد احتفظ بها جميعاً في تابلوه السيارة. وبين وقت وآخر يأخذ العلّاقة التي يحتاجها".

"ولم يتم العثور عليها في السيارة؟".

"لا. لقد أمرت بتغيير جميع الأقفال، باستثناء البيت الصغير الذي أتجاهل وجوده رسمياً. إن رغبت في المرور به ستعثر بالتأكيد على بعض الآثار الدالّة على عشيقاته".

كررتها مرتين "عشيقاته" وأراد مونتالبانو مواساتها بطريقة ما.

"بغضّ النظر عن حقيقة أنّ عشيقات المهندس لا يدخلن في نطاق تحرياتي، فقد جمعتُ بعض المعلومات، وبكل صدق أقول لك إنني حصلت على معلومات عامة تسري على أي شخص".

التفتت إليه السيدة مع ابتسامةٍ خافتة.

"هل تعلم أنني لم ألمْه على ذلك قط؟ بالأساس، بعد عامين على ولادة ابننا، لم نعد أنا وزوجي زوجين، لذلك كان لدي طريقتي لمراقبته بهدوء وروّية لثلاثين عاماً، دون أن تغشي نظراتي الأحاسيس المضطربة. حضرتك لن تفهم، اعذرني: أتحدث عن عشّاقه، وأقصد عدم تحديد جنسهم".

ضيّق مونتالبانو كتفيه وغرق أكثر في الأريكة، بدا له أنّه تلقّى ضربةً بقضيب معدني على رأسه.

"أنا بدلاً من ذلك" تابعت السيدة: "وبالعودة إلى الموضوع الذي يعنيني أكثر، أنا مقتنعة بوجود عمل إجرامي، دعني أنهي؛ ليست جريمة قتل، أو تصفية جسدية، بل جريمة سياسية. ثمّة وحشية بحدودها القصوى أدت إلى وفاته".

"هل يمكن أن تشرحي بشكل أفضل سيدتي".

"أنا مقتنعة أنّ زوجي أرغم بالقوّة أو أجبر عن طريق الابتزاز للذهاب إلى حيث عثروا عليه، في ذلك المكان سيّئ السمعة. كان لديهم خطّة لكنهم لم يمتلكوا الوقت لتنفيذها بالكامل لأن

قلوبهم لم تحتمل التوتر، أو، ولم لا، بسبب الخوف. لقد كان مريضاً بشدة، هل تعلم ذلك؟ وقد خضع لعملية جراحية شديدة الصعوبة".

"لكن كيف أمكنهم إرغامه؟".

"لا أعرف. ربما تستطيع حضرتك مساعدتي. ربّما استدرجوه في كمين. لم يملك القدرة على المقاومة. في ذلك المكان السيّئ، الذي أعرف، يصورونه، ويهددونه بالتشهير، فيغدو زوجي منذ تلك اللحظة في قبضتهم، دميةً بين أيديهم".

"من هم؟".

"خصومه السياسيون، أعتقد، أو بعض شركائه التجاريين".

"انظري سيدتي، منطقكِ، أو بالأحرى، فرضيتكِ يشوبها عيب؛ أنه لا يمكن دعمها بالأدلة".

فتحت المرأة المغلف الأصفر الذي بقيت ممسكةً به، وأخرجت منه صوراً. كانت الصور الذي التقطها الطبيب الشرعي للجثة في المنارة.

"يا يسوع" غمغم مونتالبانو مضطرباً. المرأة، بخلافه، لم تبدُ منزعجةً وهي تتحدث عنها.

"كيف حصلتِ عليها؟".

"لديّ أصدقاء طيبون. هل رأيتها أنت؟".

"لا".

"إنها مؤلمة" اختارت صورةً وأعطتها لمونتالبانو مع العدسة المكبرة. "هذه، هنا، انظر إليها جيداً. البنطال مُنزَل ويمكنك رؤية بياض السروال الداخلي".

كان مونتالبانو يتصبب عرقاً. أزعجه الاضطراب الذي شعر به، لكن ليس ثمة ما يمكن فعله حيال ذلك.

"لا أرى أي شيء غريب".

"حقاً؟ وماركة السروال الداخلي؟".

"أجل، رأيتها، ماذا؟".

"كان ينبغي ألا تراها. هذا النوع من الملابس الداخلية، وإن دخلت غرفة زوجي يمكنني أن أريك المزيد منها، تكون ماركة المصنع موضوعة إلى الخلف ومن الداخل. إذا رأيتها، كما تراها الآن، فهذا يعني أنّ السروال الداخلي قد ارتدي بالمقلوب. ولا يمكنني القول إن سيلفيو قد ارتداه بهذا الشكل في الصباح، وارتدى ملابسه، دون أن يلاحظ. لقد كان يتعاطى مدرّاً للبول يرغمه على الذهاب إلى المرحاض عدة مرات في اليوم، وكان باستطاعته إعادة ارتداء سرواله الداخلي بالشكل الصحيح في أي وقت من النهار. وهذا يعني شيئاً واحداً فقط".

"ما هو؟" استفسر المحقق مذهولاً من التيقظ والتحليل القاسي دون أي دمعة، كما لو أنّ الميت رجل غامض مجهول.

"لقد كان عارياً حين باغتوه وأرغموه على ارتداء ملابسه

بسرعة. وما كان ليستطيع التعري إلا في البيت في كابو ماسّاريا. ولهذا السبب أعطيتكم المفاتيح. أعود وأكرر: ثمّة عمل إجرامي ضد صورة زوجي، نجح نصف نجاح. أرادوا أن يجعلوا منه خنزيراً تستطيع الخنازير التهامه في أي وقت. لو لم يمت لكان أفضل. مع الغطاء الذي سيرغم عليه كانوا سيستطيعون فعل ما يشاؤون. غير أن خطتهم نجحت جزئياً: تمّ استبعاد رجال زوجي جميعاً من مجلس الإدارة الجديد، ريتزو فقط هو من نجا، بل إنه ربح".

"كيف؟".

"هذا ما عليك اكتشافه، إن رغبت في ذلك. أو يمكنك التوقف عند الشكل الذي جعلوا الماء يتخذه".

"اعذريني، لم أفهم".

"أنا لستُ صقليّةً، ولدتُ في غروسّيتو، جئت إلى مونتيلوزا حين كان والدي محافظاً. امتلكنا قطعةَ أرض صغيرة ومنزلاً عند منحدرات آمياتا، حيث كنا نمضي العطلات. كان لديّ صديق صغير، ابن فلاحين، أصغر مني. كنت في نحو العاشرة من العمر. في أحد الأيام رأيت صديقي وقد وضع على حافّة البئر دلواً، فنجاناً، إبريقاً، علبةً مربّعةً من الصفيح، وكلها مليئة بالماء، وراح يراقبها بتمعّن.

"ماذا تفعل؟" سألته، وسألني بدوره:

"ما هو شكل الماء؟".

"لا شكل للماء" قلتُ ضاحكةً: "يتخذ الشكل الذي تعطيه إياه"...".

***

في تلك اللحظة فتح باب الأستديو وظهر ملاك.

-١١-

الملاك، لم يعرف مونتالبانو في تلك اللحظة كيف يصفه بغير ذلك، شاب في قرابة العشرين من العمر، طويل، أشقر، اكتسب اللون البرونزي بشكل جيد، جسد نموذجي، بهالةٍ ملائكية. شعاعٌ عرض من الشمس حرص على إغراقه بالضوء عند العتبة جاعلاً ملامح وجهه تبدو شبيهةً بأبولو.

"أستطيع الدخول يا خالة؟".

"ادخل جورجيو، ادخل".

بينما الشاب يتحرك نحو الأريكة، بخفّة، كما لو أنّ قدميه لا تلمسان الأرض بل تنزلقان فوق البلاط، شاقاً طريقاً متعرجاً، حلزونياً تقريباً، بدا يربّت بلطف على الأشياء التي تغدو بمحاذاة يده أكثر من كونه يلمسها. أومأت السيدة بعينيها لمونتالبانو أن يدسّ الصورة التي يحملها في جيبه. استجاب لها، وكذلك أعادت الأرملة بسرعة الصور الأخرى إلى المغلّف الأصفر

الذي وضعته جوارها على الأريكة. بينما الشاب يقترب لاحظ المحقق أنّ عينيه الزرقاوين شديدتا الاحمرار، مغرورقتان بالدمع، تحيطهما هالتان سوداوان.

"كيف تشعرين يا خالة؟" استفسر بصوت شبه غنائي، وبمنتهى الأناقة ركع بالقرب منها واضعاً رأسه في حجرها. قفزت إلى رأس مونتالبانو، كما لو أنها وضعت تحت ضوءٍ عاكسٍ، لوحةٌ رآها مرةً، ولا يذكر أين، تمثّل سيّدةً إنكليزية مع كلب سلوقيّ بالوضعية ذاتها التي اتّخذها الشاب.

"إنه جورجيو" قالت السيدة: "جورجيو زيكاري، ابن أختي إيلسا التي تزوجت من إرنستو زيكاري، المحامي الجنائي، ربّما تعرفه حضرتك".

راحت السيدة تمسّد شعره وهي تتحدث. لم يبدِ جورجيو أيّ إيماءة تشير أنه يفهم الكلمات، كان واضحاً استغراقه في ألمه العنيف، حتى إنّه لم يلتفت ناحية المحقق. غير أن السيدة كانت حريصة على إبلاغ ابن اختها من يكون مونتالبانو وما الذي جاء يفعله في المنزل.

"هل استطعتَ النوم هذه الليلة؟".

على كلّ شيء كان جورجيو يجيب بهز رأسه.

"إذاً عليك فعل هذا. هل استفسرتَ عمّا إذا كان الدكتور كابوانو موجوداً؟ اذهب إليه واحصل منه على وصفة حبوب

منومة قوية وامضِ إلى الفراش".

دون أن يفتح فمه، نهض جورجيو بمنتهى الرفق، وبحركته الحلزونية الفريدة انزلق فوق البلاط، واختفى وراء الباب.

"عليك أن تعذره" قالت السيدة: "جورجيو هو بلا شك أكثر من عانى لرحيل زوجي وما زال يعاني. كما ترى، لقد رغبتُ أن يدرس ابني ويحوز موقعاً مستقلاً عن والده، بعيداً عن صقلية، ولأسباب تستطيع، ربما، تخمينَها. وبالتالي صبّ زوجي عاطفتَه كلَّها على ابن اختي بدلاً من ستيفانو، وهو بالمقابل بادله ذلك حدّ العبادة، ما أثار استياء شقيقتي وزوجها إذ شعرا بتخلّيه عنهما".

نهضت، فنهض مونتالبانو.

"لقد أخبرتك أيها المحقق كل ما اعتقدت أنّ عليّ إبلاغك إياه. أعلم أنني في أيدٍ أمينة. إن رأيتَ أنّ ثمة ما عليّ أن أعرفه فأبلغني به في أي وقت، نهاراً أو ليلاً. لا تتردد رفقاً بي، فأنا من يقولون عنها امرأة قوية. على كل حال، افعل ما يمليه عليك ضميرك".

"سؤال واحد أقلقني لبعض الوقت سيدتي. لماذا لم تبلغي عن عدم عودة زوجك... سأشرح بشكل أفضل؛ ألم يكن مقلقاً لك أن زوجك لم يعد في تلك الليلة؟ هل حدث ذلك في مرّات أخرى؟".

"أجل لقد حدث. لكنه مساء الأحد اتصل بي".

"من أين؟".

"لا أستطيع إخبارك. قال إنه سيتأخر كثيراً، وإن لديه اجتماعاً بالغ الأهمية، وربّما يضطر لقضاء الليل في الخارج".

مدّت يدها، والمحقق دون أن يعرف لماذا، أخذها بين يديه وقبّلها.

***

بمجرّد خروجه، ودوماً من الباب الخلفي للفيلا، رأى جورجيو جالساً فوق مقعد حجري على مسافة قريبة، يرتجف مصاباً بنوبة من التشنج العصبي.

دنا مونتالبانو منه قلقاً، ورأى يدَي الشاب وقد سقط منهما المغلف الأصفر وتناثرت الصور على الأرض. كان واضحاً أنه استحوذ عليه بفضول القطط حين كان جاثماً جوار خالته.

"هل أنت موجوع؟".

"ليس هكذا، يا إلهي، ليس هكذا".

تحدّث جورجيو بصوت غليظ، كانت عيناه زجاجيتين، لم يلحظ وجود المحقق حتى. وفي لحظة معينة تصلب جسده وسقط خلف المقعد الحجري الذي لا ظهر له. جثا مونتالبانو جواره، وحاول بعدة طرق تثبيت الجسد المتشنج المرتعش وقد

راح لعابٌ أبيض يتجمّع على جانبي فمه.

عند باب الفيلا ظهر ستيفانو لوباريللو ينظر حوله، رأى المشهد فهرع سريعاً.

"كنت أسعى خلفك لوداعك. ما الذي حدث؟".

"نوبة صرع على ما أعتقد".

بذلا قصارى جهدهما حريصين ألا يقطع جورجيو لسانه بأسنانه في ذروة النوبة، وألا يضرب رأسه بعنف. هدأ الشاب بعد ذلك وصارت ارتعاشاته طفيفة.

"ساعدني لحمله إلى الداخل" قال المهندس.

مع النداء الأول من المهندس هرعت الخادمة نفسها التي فتحت الباب للمحقق.

"لا أريد أن تراه أمي على هذه الحال".

"دعها لي" قالت الفتاة.

بصعوبة ساروا عبر ممر مختلف عن ذاك الذي سلكه المحقق سابقاً، مونتالبانو يمسك بجورجيو من تحت إبطيه بينما ستيفانو يحمله من قدميه. وعند وصولهم إلى جناح الخدم فتحت الخادمة باباً. وضعا الشاب على سرير وهما يلهثان. بدا جورجيو مستغرقاً في نوم عميق.

"ساعدني لنزع ملابسه" قال ستيفانو.

فقط عندما بقي الشاب بملابسه الداخلية، لاحظ مونتالبانو

أنّ جلده، من أسفل الرقبة حتى الذقن كان شديد البياض وباهتاً في تناقض واضح مع الصدر والوجه اللذين تركت الشمس أثرها عليهما.

"هل تعرف لمَ لم تصب الشمس هذا الجزء؟" سأل المهندسَ.

"لا أعرف" قال المهندس: "لقد عدت إلى مونتيلوزا عصر يوم الاثنين فقط بعد أشهر من الغياب".

"أنا أعرف" تدخلت الخادمة: "السيد كان بحال سيئة، تعرض لحادث سيارة. لقد خلع الطوق عن رقبته فقط قبل أسبوع".

"حين يتعافى ويستعيد وعيه" قال مونتالبانو لستيفانو: "أخبره أن يجيء صباح الغد، قرابة العاشرة، لزيارة مكتبي في فيغاتا".

عاد إلى المقعد. جمع عن الأرض المغلف والصور التي لم ينتبه إليها ستيفانو، ودسها في جيبه.

***

المسافة من كابو ماسّاريا إلى منعطف سان فيليبّو كانت نحو مئة متر، لكن المحقق لم يستطع رؤية المنزل الصغير المفترض أنه يرتفع فوق الحافّة، على الأقل كما وصفته له السيدة لوباريللو. واصل تقدّمه ببطء شديد. عندما صار في أعلى نقطة لاحظ بين

الأشجار الكثيفة والمنخفضة درباً متفرعاً عن طريق المقاطعة. سلكه، وبعد لحظات رأى أن الدرب تقطعه بوابة، الفتحة الوحيدة على طول جدار حجري يعزل ذلك الجزء المشرف على البحر. كانت المفاتيح صحيحة. ترك مونتالبانو السيارة خارج البوابة، وانطلق وسط الحديقة في مسار تحدده حجارة الجير المرصوفة على الجانبين. أخيراً نزل سلّماً صغيراً مصنوعاً من الجير أيضاً، والذي يتداخل مع نوع من الرواق فتح فيه باب البيت غير المرئي من أحد الجوانب لأنه مبني في عش نسر، كما بعض أنواع الملاجئ التي تبنى في الصخور.

وجد نفسه في صالون مشرف على البحر، أو بالأحرى معلّق فوق البحر، والانطباع بأنه على سطح سفينة عززته نافذة فتحت على طول الجدار. الترتيب كان نموذجياً. هناك طاولة طعام مع أربع كراسيّ في أحد الأركان، أريكة مع كنبتين مقابل النافذة، خزانة أوانٍ تعود للقرن التاسع عشر مليئة بالأكواب، الصحون، زجاجات النبيذ والكحول، تلفاز مع جهاز فيديو، وعلى طاولة منخفضة اصطفت شرائط أفلام إباحية وغيرها. على الصالون فتحت ثلاثة أبواب؛ الأول مفتوح على مطبخ صغير في غاية النظافة، الرفوف تفيض بالأطعمة، بينما كانت الثلاجة شبه فارغة باستثناء بضع زجاجات من الشامبانيا والفودكا. الحمّام، الفسيح نوعاً ما، يعبق برائحة المنظفات. على الرف أسفل المرآة، هناك

مكنة حلاقة كهربائية، مزيل تعرق، وزجاجة كولونيا. في غرفة النوم، حيث توجد نافذة أخرى تطل أيضاً على البحر، هناك سرير مزدوج مغطى بملاءات نظيفة، كومودينتان وُضع هاتف فوق إحداهما، خزانة بثلاث درف. على الجدار، عند رأس السرير، لوحة لإيميليو غريكو، عري في غاية الإثارة. فتح مونتالبانو درج الكومودينة التي وُضع الهاتف فوقها، وهو الجانب الذي كان يشغله المهندس عادةً بالتأكيد. كان هناك ثلاثة واقيات ذكرية، قلم برأس مدبب، دفتر ملاحظات بأوراق بيضاء. فوجئ بمسدس ٧,٦٥ محشو وموضوع في قعر الدرج تماماً. درج الكومودينة الأخرى كان فارغاً. فتح درفة الخزانة اليسارية، كان هناك ثوبان رجاليان. وفي الدرج العلوي قميص وثلاثة سراويل داخلية، بعض المناديل، وقميص بروتيل. تفحّص السراويل الداخلية، كانت السيدة على حق، العلامة التجارية كانت إلى الخلف من الداخل. في الدرج السفلي كان هناك خُفّان وبساط صغير، وثمّة مرآة تغطي الدرفة كاملة تعكس السرير. هذا الجزء من الخزانة كان مقسماً إلى ثلاثة رفوف، الأعلى والأوسط يحتويان، بشكل عشوائي، على قبعات، مجلات إيطالية وأجنبية، تشترك جميعها بالمواد الإباحية، جهاز فيبراتور، ملاءات وأكياس وسائد احتياطية. فوق الرف السفلي ثلاث باروكات نسائية مثبتة على أعمدة خاصة، واحدة بنية، وأخرى شقراء، وواحدة

حمراء. ربّما كانت جزءاً من الألعاب الإيروتيكية للمهندس. المفاجأة الكبرى، بدلاً من ذلك، كانت عندما فتح الدرفة اليمنى؛ فستانان نسائيان غاية في الأناقة متدليان من العلاقات. وكان هناك أيضاً بنطالا جينز وبعض القمصان. وفي الدرج، سراويل داخلية صغيرة، دون أي حمّالات صدر. الدرج الآخر كان فارغاً. وبينما كان ينحني لتفحص الدرج بشكل أفضل أدرك مونتالبانو ما الذي فاجأه فعلاً، لم تكن الملابس النسائية بمقدار ما هو العطر الذي يفوح منها؛ إنه العطر نفسه الذي اشتمّه، ولكن بشكل أكثر غموضاً، في المصنع القديم حالما فتح الحقيبة التي كانت ملقاة هناك.

لم يكن هناك شيء آخر لرؤيته. فقط بسبب الهواجس انحنى باحثاً تحت المفروشات. ربطة عنق كانت ملتفّة على واحدة من أرجل السرير الخلفية. أخذها متذكراً أنّ المهندس عُثر عليه بياقة قميص مفتوحة. أخرج الصور من جيبه واقتنع، بسبب اللون، أنها كانت مناسبة جداً للملابس التي كان المهندس يرتديها لحظة وفاته.

***

في مركز الشرطة وجد جيرمانا وغاللوتزو في حالٍ من التوتر.

"والرقيب؟".

"فاتزيو مع آخرين توجهوا إلى محطة البنزين، تلك التي في

نواحي مارينيلّا، حدث إطلاق نار هناك".

"سأذهب حالاً. هل أرسل أحد ما شيئاً لي؟"

"نعم، هناك طرد من طرف السيد جاكوموتزي".

فتحه، كانت القلادة، فخبأها.

"جريمانا، أنت ستأتي معي، سنذهب إلى تلك المحطة، تتركني هناك وتواصل بسيارتي إلى مونتيلوزا. سأخبرك في السيارة ما الذي عليك أن تفعله".

دخل غرفته، اتصل بالمحامي ريتزو وأبلغه أنّ القلادة في طريقها إليه، مضيفاً أنّ عليه تسليم الشيك بعشرة ملايين للعنصر نفسه.

بينما كانا في طريقهما إلى مكان إطلاق النار، أوضح المحقق لجيرمانا أنّ عليه ألا يترك الطرد لريتزو قبل أن يكون الشيك في جيبه. وأنّ عليه أن يوصل الشِك، وأعطاه العنوان، إلى سارو مونتابيرتو، وأن يوصيه بضرورة أن يصرفه حالما يفتح المصرف في الثامنة صباح اليوم التالي. لم يعرف كيف يشرح السبب، وهذا الأمر أشعره بالاستياء، لكنه أحسّ أن قضية لوباريللو تتجه بسرعة إلى خاتمتها.

"ثمّ أعود إلى المحطة؟".

"لا، تركنها في مركز الشرطة. أنا سأعود في سيارة الخدمة".

***

سيارة الشرطة وسيارة خاصة كانتا تصنعان حاجزاً أمام المحطة.
حالما نزل، وبينما جيرمانا يأخذ الطريق نحو مونتيلوزا، غمرت المحقق رائحة البنزين.

"احذر أين تضع قدميك" صرخ فاتزو. كان البنزين قد شكّل بحيرةً، وأحسّ مونتالبانو بالغثيان وبدوار بسيط. وقف في المحطة، كانت هناك سيارة تحمل لوحة باليرمو وعلى زجاجها الأمامي واقٍ بلاستيكي.

"كان هناك جريح، هو من كان يقود" قال الرقيب: "قامت سيارة الإسعاف بنقله".

"بوضع خطير؟".

"لا، مجرد جرح. لكنه تعرض لخوف كبير".

"ما الذي حدث بالضبط؟".

"إن أردت التحدث مع عامل المحطة نفسه...".

أجاب الرجل عن أسئلة المحقق بصوت تقريري ترك في مونتالبانو التأثير نفسه الذي يتركه صوت ظفرٍ على الزجاج. الحقائق كانت تمضي تقريباً بهذه الطريقة: توقفت سيارة، الشخص الوحيد على متنها طلب مَلْأَها بالوقود، العامل وضع الخرطوم في الخزان وتركه يعمل، أدار موقف التدفق الأوتوماتيكي بسبب وصول سيارة أخرى في هذه الأثناء وطلبها تعبئة وقود بثلاثين ألفاً وفحص الزيت. بينما العامل يستعد لخدمة

الزبون الثاني أطلقت سيارة من على الطريق رشقةً من رشّاش وابتعدت مسرعة لتختفي وسط الزحام. الرجل في السيارة الأولى غادر حالاً مطارداً السيارة فيما سقط الخرطوم على الأرض وهو يواصل ضخ الوقود. سائق المركبة الثانية صرخ كالمجنون، لقد أصيب بجرح في كتفه. بمرور اللحظة الأولى من الذعر أدرك أنه لم يعد هناك المزيد من الخطر، فانهمك العامل بإسعاف الجريح فيما البنزين يواصل التدفق من الخرطوم على الأرض.

"هل رأيت وجه الرجل في السيارة الأولى، ذاك الذي هرع للمطاردة؟".

"لا".

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"بمقدار حقيقة الله".

وصل رجال الإطفاء الذين دعاهم فاتزو في هذه الأثناء.

"دعنا نقوم بهذا" قال مونتالبانو للرقيب: "بمجرد انتهاء رجال الأطفال من عملهم، خذ عامل المحطة، الذي لم يقنعني قطّ، إلى مركز الشرطة وضعه تحت الضغط، إنه يعرف جيداً من كان الرجل الذي أراد إطلاق النار".

"أنا أيضاً أعتقد ذلك".

"بكم تراهن أنه واحد من جماعة كوفّارو؟ هذا الشهر يبدو

لي أنه دور أحدهم".

"تريد سحب المال من جيوبي!" أجاب الرقيب ضاحكاً: "حضرتك فزت بالرهان أيها المحقق".

"إلى اللقاء".

"إلى أين تذهب؟ ألن ترافقني في سيارة الخدمة؟".

"ذاهب إلى البيت لتبديل ملابسي. مشياً على الأقدام من هنا لن يستغرق الأمر أكثر من عشرين دقيقة. بعض الهواء سيكون جيداً لي".

انطلقَ. ما كان ليذهب فيحضر عند إنغريد سيوستروم بملابس يظهر فيها كعارض أزياء.

-١٢-

تسمّر أمام التلفاز بمجرد خروجه من الحمام، كان ما يزال عارياً يقطر الماء عنه. الصور كانت لجنازة لوباريللو التي جرت في الصباح، وقد أدرك المصوّر أنّ الأشخاص الوحيدين القادرين على منح مشاهد دراميّة للمناسبة، من دونهم ستغدو المناسبة مملّة كغيرها من المراسم الرسمية، هم الثلاثي؛ الأرملة، الابن ستيفانو، وابن الأخت جورجيو. السيدة، دون أن تشعر، كانت تصيب رأسها رعشة عصبية بين فينة وأخرى، فتلقي رأسها للخلف كأنها تقول مكرّرة: لا. تلك الـ"لا"، بصوتٍ خفيض آسفٍ فسّرها المعلّق على أنها إيماءة واضحة من مخلوق يرفض واقعة الموت غير المنطقية، لكن بينما المصور يقترب بالكاميرا منها لالتقاط نظرتها عثر مونتالبانو على تأكيد لما سبق للأرملة أن اعترفت به: في تلكم العينين لم يكن إلا الازدراء والملل. جوارها كان يجلس الابن "متسمّراً من الألم" قال المتحدث،

وقد وصفه بالمتسمّر لأن المهندس الشاب أظهر رباطة جأش أقرب إلى اللامبالاة. أمّا جورجيو فبالعكس من ذلك كان يترنح كشجرة في مهب الرياح، يتأرجح مكلوماً، وبين يديه منديلٌ يلوّح به بشكل متواصل، وهو غارق في دموعه.

***

رنّ الهاتف فذهب ليجيب دون أن يزيح نظره عن التلفاز.

"أنا جيرمانا أيها المحقق. كلّ شيء على ما يرام. المحامي ريتزو يشكركم ويقول إنه سيجد طريقة لردّ الدّين".

تمتم بأنه أمام طرق المحامي هذه في ردّ الديون سيكون الدائنون سعداء ألّا يفعل.

"ثمّ ذهبت إلى سارو وأعطيته الشّيك. اضطررتُ لإقناعهما، لم يكونا مصدّقين، ظنّا أنه مقلب، ثمّ أخذا يقبّلان يدي. لقد أنقذتهما، وكلّ ذلك بفضل الله في رأيهما. السيارة في مركز الشرطة، ماذا أفعل، أوصلها إلى البيت؟".

نظر المحقق إلى ساعته، موعده مع أنغريد بعد أكثر من ساعة.

"حسناً، ارتح الآن. ولنقل إنك في التاسعة والنصف ستكون هنا. ثمّ أوصلك إلى البلدة".

لم يرغب في تفويت لحظة الإغماء المزيف، كان يشعر كما لو أنه متفرّج كشف له الساحر سرّ الخدعة فما عادت كثيراً تمتعه

المفاجأة بل المهارة، غير أنّ من افتقدها كان المصور الذي في تلك اللحظة لم يملك الوقت لانتهازها منشغلاً بلقطة بانورامية سريعة من الوزير في الصف الأول إلى أفراد العائلة، كان ستيفانو واثنان من المتطوعين يحملون السيدة إلى الخارج فعلاً، بينما بقي جورجيو مكانه يواصل الترنح.

***

بدلاً من تركه جيرمانا أمام مركز الشرطة والمتابعة، نزل معه. وجد فاتزو وقد عاد من مونتيلوزا، كان قد تحدث إلى الجريح الذي هدأ أخيراً. أخبره الرقيب أنه كان مندوب الأدوات الكهربائية، من ميلانو، والذي يستقل الطائرة مرة كلّ ثلاثة أشهر ويحط في باليرمو، فيستأجر سيارة ويبدأ جولته. عندما توقف في محطة البنزين راح يتفحص ورقةً للتأكد من عنوان المتجر التالي الذي عليه زيارته، ثمّ سمع الرصاص وشعر بألم في كتفه. فاتزو كان مصدقاً القصة.

"ذكي، ذلك الرجل عندما يعود إلى ميلانو ينضمّ إلى أولئك الراغبين بفصل صقلية عن الشمال".

"وصاحب المحطّة؟".

"صاحب المحطة شيء مختلف. جياللومباردو يتحدث إليه، وهو يعرف كيف يفعل ذلك، من يبقى معه لساعتين سيثرثر كما

لو أنه يعرفه منذ مئة سنة، وبعد ذلك سيسرّ له بأسرار لن يخبرها حتى للكاهن أثناء الاعتراف".

***

كانت الأنوار مطفأة والباب الزجاجي موصداً. اختار مونتالبانو يوم العطلة الأسبوعية لمقهى مارينيلّا. ركن سيارته وراح ينتظر. بعد بضع دقائق وصلت سيارة بمقعدين، حمراء، ومفلطحة كسمكة موسى.

فتحت إنغريد الباب ونزلت. حتى في الضوء الخافت لمصباح الشارع رأى المحقق أنها كانت أفضل حالاً مما تخيلها؛ بنطال جينز ضيّق يلف ساقيها بالغتي الطول، قميص أبيض قصير بأكمام مطوية، صندل، شعر ملفوف على هيئة كعكة؛ أنثى غلاف حقيقية. تلفتت إنغريد حولها، لاحظت الأنوار المطفأة. بتكاسل، ولكن بخطوات واثقة، اتجهت نحو سيارة المحقق، وانحنت للتحدث إليه عبر النافذة المفتوحة.

"أرأيت أنني كنت محقّة؟ والآن؛ أين نذهب، إلى بيتك؟".

"لا" قال مونتالبانو غاضباً: "اصعدي".

انصاعت المرأة، وحالاً غمرت السيارة رائحة العطر الذي يعرفه المحقق فعلاً.

"أين نذهب؟" كرّرت المرأة. الآن ما عادت تسخر ولا تثرثر

كثيراً. كأنثى من سلالة عظيمة باتت حذرةً من عصبية الرجل.

"هل لديكِ الوقت؟".

"كل ما أرغب فيه".

"لنذهب إلى مكان تشعرين فيه بالراحة، لأنك سبق أن كنت فيه، سترين".

"وماذا بشأن سيارتي؟".

"سنعود لأخذها بعد ذلك".

غادرا، وبعد بضع دقائق من الصمت طرحت إنغريد السؤال الذي كان يتوجب عليها طرحه من البداية:

"لماذا ترغب في رؤيتي؟".

اعتبر المحقق أنّ مجيئه ليطلب إليها أن تصعد معه في السيارة كان بمثابة تفكير شرطي، لكنه دوماً كان شرطياً.

"أريد رؤيتك سيدتي لأنني أرغب في طرح بعض الأسئلة عليك".

"اسمع أيها المحقق، أنا أخاطب الجميع دون تكليف، إن بقيت تحدثني بنبرة التفخيم هذه فأنت تحرجني. ما اسمك؟".

"سالفو. هل أبلغك المحامي ريتزو أننا عثرنا على القلادة؟".

"أي قلادة؟".

"كيف أيّ قلادة؟ تلك ذات القلب الماسيّ".

"لا، لم يخبرني. ثمّ لا علاقة تجمعني به. لا بدّ أنه أخبر زوجي".

"تثيرين فضولي، لكن هل تعودتِ أنت إضاعة المجوهرات والعثور عليها لاحقاً؟".

"لماذا تقول هذا؟".

"كيف لماذا؛ أقول لك إننا عثرنا على قلادتك التي تبلغ قيمتها مئة مليون فلا يرف لك جفن؟".

ضحكت إنغريد ملء شدقيها، وبنبرة هادئة قالت:

"الحقيقة أنني لا حب المجوهرات. انظر" وعرضت يديها أمامه: "لا أضع الخواتم، حتى خاتم الزواج لا أضعه".

"أين أضعتها؟".

لم تجب إنغريد حالاً.

"إنها تراجع الدرس" فكّر مونتالبانو. ثمّ بدأت المرأة تتحدث تلقائياً، لم تسعفها حقيقة كونها أجنبية على الكذب.

"فضول كبير كان يتملكني لرؤية مانّارا".

"المنارة" صحّح مونتالبانو.

"... لقد سمعت عنها. أقنعت زوجي بأخذي إليها. هناك نزلت ومشيت بضع خطوات. تعرّضت لما يشبه الاعتداء، خفتُ، وخشيت أن يشتبك زوجي في شجار. غادرناها، وفي المنزل اكتشفت أنني فقدت القلادة".

"كيف حدث أن ارتديتها ذلك المساء وأنت تقولين إنك لا تحبين المجوهرات؟ لا تبدو لي ملائمةً للذهاب إلى المنارة".

ارتبكت إنغريد.

"ارتديتها لأنني عصر ذلك اليوم كنت رفقة صديقةٍ رغبت في رؤيتها".

"اسمعي" قال مونتالبانو: "عليّ أن أقول شيئاً. أنا أتحدث إليك دوماً بصفتي محققاً، لكن بطريقة غير رسمية. واضح؟".

"لا. ماذا تعني بغير رسمية؟ لا أعرف الكلمة".

"هذا يعني أن ما تخبرينني به سيبقى بيني وبينكِ. لماذا اختار زوجُك ريتزو تحديداً محامياً؟".

"ما كان عليه أن يفعل؟".

"لا. بشكل منطقي على الأقل. ريتزو كان ساعد المهندس لوباريللو الأيمن، أي أنه أكبر خصم سياسي لحميكِ. بالمناسبة، هل كنت تعرفين لوباريللو؟".

"بالنظر. ريتزو كان دوماً محامي جياكومو. وأنا لا أفهم خراء السياسة".

تمطّت، معيدةً ذراعيها إلى الخلف.

"أشعر بالملل. للأسف. توقعت أنّ مقابلة رجل بوليس ستكون أكثر إثارة. هل أستطيع معرفة إلى أين نذهب؟ أما يزال الطريق طويلاً؟".

"لقد وصلنا تقريباً" قال مونتالبانو.

***

بمجرد تجاوزهما منعطف سان فيليبّو صارت المرأة متوترةً تنظر إلى المحقق بطرف عينيها، وهي تتمتم:

"أرى أن لا وجود لمقهى في هذه الناحية".

"أعرف ذلك" قال مونتالبانو وهو يبطئ وتيرته. أخذ الحقيبة من الكيس الذي وضعه خلف المقعد الذي تجلس إنغريد فيه: "أرغب في أن أريكِ شيئاً".

وضعها على ركبتيها. فنظرت إليها المرأة مذهولة.

"كيف وصلت إليك؟".

"هي لكِ؟".

"طبعاً، إنها لي. انظر هنا الأحرف الأولى من اسمي".

وإذ رأت أن الحرفين مفقودان تعاظمت دهشتها.

"لقد سقطا" قالت بصوت خافت ولم تبدُ مقتنعةً. كانت تائهةً في دوامة من الأسئلة دون إجابات، وقد بدأ أمرٌ ما يقلقها. كان هذا واضحاً.

"الأحرف الأولى من اسمك ما تزال موجودة، لا تستطيعين رؤيتها بسبب الظلام، لقد نزوعها وبقي أثرها محفوراً في الجلد".

"لكن لماذا ينزعونها؟ ومن قام بذلك؟".

الآن شابَتْ صوتَها نبرةُ حزن. المحقق لم يجب، مع أنه كان يعلم جيداً لمَ فعلوا ذلك، وأنهم قصدوا الإيهام بأن إنغريد حاولت إخفاء هويّة الحقيبة.

وصلا نهاية الطريق المؤدي إلى كابو ماسّاريا، راح مونتالبانو يزيد السرعة كأنه ينوي الاستمرار في خط مستقيم، وسريعاً في لحظة معينة انعطف، وبلمح البصر ودونما كلمة، فتحت إنغريد الباب، وبرشاقة قفزت من السيارة المتحركة، وهربت مختفية بين الأشجار.

وهو يطلق اللعنات فرمل المحقق وقفز من السيارة ليبدأ بمطاردتها. بعد بضع ثوانٍ أدرك أنه لن يتمكن من الوصول إليها فتوقف حائراً. عندئذ فقط رآها تسقط. وحين صار جوارها بدأت إنغريد، التي كانت تعجز عن النهوض، تحدث نفسها باللغة السويدية ما يشير بوضوح إلى خوفها وغضبها.

"المنيوكة" وواصلت تدليك كاحلها الأيمن.

"انهضي ولا ترتكبي المزيد من الحماقة".

انصاعت بكثير من المشقة. اتكأت إلى مونتالبانو الذي بقي متسمراً دون أن يساعدها.

***

البوّابة فتحت بسهولة، لكن باب المدخل كان من الصعب فتحه.

"أفتحه أنا" قالت إنغريد. كانت تتبعه دون أن تقوم بأي فعل، وكأنها غير معنية. لكنها نظمت خطتها الدفاعية.

"على كل حال، لن تعثر على شيء في الداخل" قالت عند العتبة بنبرة واثقة.

أضاءت النور واثقةً بنفسها. لكن عند النظر إلى الأثاث، أشرطة الفيديو، الغرفة المؤثثة على أكمل وجه، كانت مفاجأتها الواضحة، تجعد جبينها.

"قالوا لي...".

انتبهت لنفسها حالاً فتوقفت عن المتابعة. رفعت كتفيها والتفتت إلى مونتالبانو الذي ينتظر اتخاذها خطوة أخرى.

"في غرفة النوم" قال المحقق.

فتحت إنغريد فمها وأوشكت التلفظ بنكتة قذرة لكنها تراجعت عن ذلك. أدارت ظهرها وراحت تعرج باتجاه الغرفة الأخرى، أضاءت النور، ولم تبدِ أي مفاجأة هذه المرة، كما لو كانت تتوقع أن يكون كل شيء منظماً. جلست عند أقدام السرير وفتح مونتالبانو درفة الخزانة اليسرى.

"هل تعرفين لمن تعود هذه الملابس؟".

"عليّ التفكير أنها لسيلفيو، المهندس لوباريللو".

فتح الدرفة الوسطى.

"هل هذه الباروكات لكِ؟".

"لا أبداً، لم أرتدِ الباروكة في يوم من الأيام".

حين فتح الدرفة اليمنى أغلقت إنغريد عينيها.

"لا تحلّين شيئاً بهذا، انظري، هل هذه لكِ؟".

"أجل. لكن...".

"... لكن ما كان ينبغي أن تكون ما زالت هنا" أكمل مونتالبانو جملتها.

جفلت إنغريد.

"كيف عرفت ذلك؟ من أخبرك؟".

"لم يخبرني أحد، عرفت ذلك بمفردي. عملي هو شرطي إن كنت تذكرين؟ هل الحقيبة كانت موجودة في الخزانة أيضاً؟".

أومأت إنغريد برأسها إيجاباً.

"والقلادة التي قلتِ إنك أضعتها أين كانت؟".

"في الحقيبة. في إحدى المرات كنت أرتديها ثمّ جئت إلى هنا وتركتها".

توقفت لبرهة ونظرت في عيني المحقق طويلاً.

"ماذا يعني كل هذا؟".

"لنعد إلى هناك".

أخذت إنغريد كأساً وملأتها حتى المنتصف بويسكي خفيف، وجرعتها دفعةً واحدة، ثم أعادت مَلأَها مجدداً.

"هل تريد القليل؟".

قال مونتالبانو: "لا". كان جالساً على الأريكة ينظر إلى البحر وكان الضوء خافتاً بما يكفي لجعله يراه عبر الزجاج. اقتربت إنغريد وجلست جواره.

"لقد كنت هنا لمراقبة البحر في مناسبات أفضل".

انزلقت على الأريكة بعض الشيء وأرخت رأسها على كتف المحقق الذي لم يتحرك، والذي فهم حالاً أنّ تلك البادرة لم تكن قطّ محاولة إغواء.

"إنغريد؛ تذكرين ما قلته لك في السيارة؟ حول أن الحديث فيما بيننا غير رسمي؟".

"أجل".

"أجيبيني بصدق. الملابس في الخزانة أنتِ من أحضرها أو كانت موجودةً هنا؟".

"أنا أحضرتها. إنني أحتاجها".

"هل كنتِ عشيقةً للوباريللو؟".

"لا".

"كيف لا؟ يبدو لي هنا كأنك في بيتك".

"نمت مع لوباريللو مرة واحدة فقط بعد وصولي إلى مونتيلوزا بستة أشهر. وبعدها أبداً. لقد أحضرني إلى هنا، لكننا أصبحنا صديقين، صديقين حقيقيين، كما لم يحدث مع أي

رجل آخر حتى في بلدي. كنت أستطيع إخباره بكل شيء، كل شيء تماماً، إن وقعتُ في مشكلة كان قادراً على إخراجي منها دون أن يطرح أيّ أسئلة".

"تريدين أن أصدق أنك من أجل مرة واحدة أحضرتِ إلى هنا فساتينك، جينزاتك، ملابسك الداخلية، الحقيبة والقلادة؟".

ابتعدت إنغريد غاضبةً.

"لا أريدك أن تصدق شيئاً. كنتُ أتحدث. بعد بعض الوقت سألت سيلفيو إن كان بإمكاني استعمال المنزل بين وقت آخر، ووافق على ذلك متوسلاً إليّ أمراً واحداً فقط، وهو ألا أسرّ لأي أحد لمن يعود البيت".

"وإن قررت المجيء ما الذي كنت تفعلينه لمعرفة إن كانت الشقة خالية وتحت تصرفك؟".

"اتفقنا على سلسلة من رنّات الهاتف. أنا حافظت على كلمتي مع سيلفيو. ولم أحضر إلى هنا غير رجل واحد، هو نفسه دائماً".

أخذت رشفةً طويلة، كانت كأنها تغرق بين كتفيها.

"رجل أراد منذ عامين دخول حياتي عنوةً. لأنني أنا، بعد ذلك، لم أرغب في المزيد".

"بعد ماذا؟".

"بعد المرّة الأولى. لقد أخافني الوضع. لكن هو كان...

كالأعمى، كان لديه تجاهي، كما يقولون، هوس كبير. فيزيائي فقط. كل يوم يطلب أن ألتقيه. ثمّ، حين أجيء به إلى هنا، يلقي بنفسه عليّ، ويصير شرساً، يمزق ملابسي. لهذا احتفظت بقطع احتياطية في الخزانة".

"ذلك الرجل عرف من يملك المنزل؟".

"لم أخبره قطّ، إضافة إلى أنه لم يسأل. كما ترى، هو ليس غيوراً، إنه فقط يريدني، لم يتعب أبداً من البقاء داخلي، ومستعد لأخذي في أي لحظة".

"أفهم. ولوباريللو بدوره لم يعرف بمن تجيئين إلى هنا؟".

"الأمر نفسه. لم يسأل وأنا لم أخبره".

نهضت إنغريد.

"ألا نستطيع الذهاب للتحدث في مكان آخر؟ هذا المكان بات يزعجني الآن. هل أنت متزوج؟".

"لا" أجاب مونتالبانو متفاجئاً.

"لنذهب إلى منزلك" وابتسمت دون بهجة: "أخبرتك أن الأمر سينتهي على هذا النحو أليس كذلك؟".

-١٣-

أحد منهما لم يرغب في الحديث. مكثا صامتين لمدة ربع ساعة. لكنّ المحقّق مرّة أخرى استسلم لطبيعته كشرطي. في الواقع، حين وصل ناحية الجسر المطل على مجرى النهر اقترب وفرمل السيارة. نزل، وطلب إلى إنغريد أن تفعل الشيء نفسه. من أعلى الجسر عرض على المرأة المجرى الجاف الذي يمكن تبينه تحت ضوء القمر.

"انظري" قال لها: "مسار هذا النهر يصل مباشرة إلى الشاطئ. إنه منحدر بشدة. مليء بالحجارة والصخور. هل تستطيعين الذهاب إلى الأسفل بالسيارة؟".

تفحصت إنغريد المسار، الجزء الأول الذي تمكنت من رؤيته، أو بالأحرى تخمينه.

"لا أستطيع أن أجيبك. لو أننا في النهار لاختلف الأمر. على كل حال يمكنني التجريب إن أردت ذلك".

التفت المحقق إليها مبتسماً بعينين نصف مغمضتين.

"لديك معلومات جيدة عني، آه؟ إذاً، ما الذي عليّ فعله؟".

"قومي بذلك" قال مونتالبانو.

"حسناً. انتظر هنا".

صعدت إلى السيارة وانطلقت. بضع ثوان كانت كافية لتغيب الأضواء عن نظر مونتالبانو.

"تصبحين على خير. راحت عليكِ" تمتم المحقق.

وبينما هو يستعد للسير مسافة طويلة نحو فيغاتا سمع هدير المحرك يعود.

"ربما أستطيع القيام بذلك. هل لديك مصباح؟".

"إنه في الدرج".

ركعت المرأة على ركبتيها، وأضاءت أسفل السيارة، ثم نهضت.

"لديك منديل؟".

أعطاها مونتالبانو منديلاً، فربطته بإحكام حول كاحلها الذي يؤلمها.

"اصعد".

تراجعت للخلف. وصلت بداية طريق ترابي متفرع من طريق المقاطعة المؤدي إلى الجسر.

"سأحاول أيها المحقق. لكن ضع في حسبانك أنّ لديّ ساقاً

مصابة. اربط حزام الأمان. هل عليّ أن أسرع؟".

"أجل، لكن الأهم أن نصل الشاطئ سالمين".

أنزلت أنغريد فرامل اليد وأقلعت. كانت عشر دقائق من الخضخضة المتواصلة والعنيفة، وانتاب مونتالبانو شعور في بعض اللحظات أن رأسه يكاد ينفصل عن جسده ويطير من النافذة. بخلافه، كانت إنغريد هادئة، مصممة، تقود السيارة وقد أبقت لسانها خارج شفتيها، وأراد المحقق أن يخبرها ألا تفعل ذلك فربما تجرحه بعضّة لا إرادية.

حين وصلا الشاطئ:

"هل نجحتُ في الامتحان؟" سألت إنغريد.

في الظلام كانت عيناها متوقدتين. كانت سعيدة ومتحمسة.

"نعم".

"هل نفعلها مجدداً، صعوداً؟".

"أنت مجنونة! يكفي هذا".

لقد أصابت بوصفها الأمر بالامتحان. لكنه كان امتحاناً دون نتائج مطلقاً. سلكت إنغريد ذلك الطريق بيسر، وهي نقطة في غير صالحها، بطلب من المحقق لكن دون أن تظهر أي توتر، كانت متفاجئة فقط، وهذه نقطة لصالحها. حقيقة أنها لم تكسر شيئاً من السيارة كيف ينظر إليها؟ هل هي إيجابية أو سلبية؟

"إذا؟ هل نعيدها؟ هيا؛ إنها اللحظة الوحيدة التي استمتعت

فيها هذا المساء".

"لا، قلت لك لا".

"إذاً تقود أنت. أنا بحال سيئة جداً".

قاد المحقق السيارة على طول شاطئ البحر، وتأكد أنّ السيارة بحال جيدة ولم يتحطم شيء فيها.

"أنت ماهرة حقاً".

"كما رأيت" قالت إنغريد وقد صارت محترفة وجدية.

"أيّاً كان يستطيع الخوض في ذلك المسار. المهارة تكمن في أن تصل السيارة إلى النهاية بالحال ذاتها التي كانت عليها عند الانطلاق. لأنه بعد ذلك ربّما تجد نفسك أمام طريق إسفلتي، وليس شاطئاً كهذا، وسيكون عليك المضي بسرعة. أنا لا أشرح فكرتي بشكل جيد".

"تشرحين جيداً. من يصل الشاطئ، على سبيل المثال، بترس مكسور، يكون شخصاً لا يعرف كيف يفعل ذلك".

وصلا المنارة، وانعطف مونتالبانو إلى اليمين.

"أترين تلك الأجمة الضخمة؟ هناك عثر على لوباريللو".

لم تقل إنغريد شيئاً، ولم يبدُ عليها أي فضول حيال الأمر. أكملا المسار، الحركة كانت قليلة هذا المساء، وتحت جدار المصنع القديم:

"هنا فقدت المرأة التي كانت رفقة لوباريللو القلادة،

والحقيبة رميت من هناك فوق الجدار".

"حقيبتي؟".

"أجل".

"لست أنا" تمتمت إنغريد: "أقسم لك أنني لا أفهم شيئاً على الإطلاق من هذه القصة".

***

حين وصلا منزل مونتالبانو لم تستطع إنغريد الخروج من السيارة فاضطر المحقق لإحاطة خصرها بذراعه بينما اتكأت هي إلى كتفه. بمجرد الدخول ارتمت المرأة على أول كرسي وجدته قريباً.

"يا يسوع! الآن تؤلمني حقاً".

"اذهبي إلى هناك واخلعي بنطالك، أستطيع صنع ضمادة لك".

نهضت إنغريد متأوّهة، ومشت وهي تعرج مستندة إلى الأثاث والجدران.

اتصل مونتالبانو بمركز الشرطة. أخبره فاتزو أن عامل المحطة تذكر كل شيء، وقد تعرف جيداً على الرجل الذي كان خلف المقود، ذاك الرجل الذي أرادوا قتله؛ توري غامبارديللا، واحد من جماعة كوفّارو، كما أراد أن يثبت.

"غاللوتزو" تابع فاتزو: "ذهب إلى منزل غامبارديللا، زوجته تقول إنها لم تره منذ يومين".

"كنتُ سأفوز بالرهان معك" قال المحقق.

"لماذا، هل تعتقد حضرتك أنني أحمق بحيث أجعلك تلدغني؟".

سمع الماء يتدفق في الحمّام، لا بدّ أنّ إنغريد من أولئك النسوة اللواتي لا يستطعن مقاومة رؤية الدوش. طلب رقم الهاتف المحمول لجيجيه.

"هل أنت وحدك؟ هل تستطيع التحدث؟".

"بالنسبة إلى الوحدة فأنا وحدي. بالنسبة إلى الحديث فالأمر يتعلق بالموضوع".

"فقط عليّ أن أسألك عن اسم. هي معلومات لا تعرضك للخطر، واضح؟ لكنني أريد إجابة دقيقة".

"اسم من؟".

شرح له مونتالبانو ولم يجد جيجيه صعوبة بإعطائه الاسم، وزيادةً في الثقل أعطاه اسماً مستعاراً أيضاً.

***

كانت إنغريد مستلقية في السرير تلتحف منشفةً كبيرة تغطيها بعض الشيء.

"اعذرني، لكني لا أستطيع الوقوف".

من خزانة الحمّام أحضر مونتالبانو أنبوبة مرهم ولفافة شاش.

"أعطني ساقكِ".

أثناء الحركة ظهر سروالها الداخلي ونهداها أيضاً، إنه صدرٌ يبدو كأنما رسمه رسّام يفهم الأنوثة جيداً. بدت الحلمة كأنها تنظر حولها بفضول حيال البيئة المجهولة. هذه المرّة أيضاً أدرك مونتالبانو أنه لم يكن لدى إنغريد أي رغبة في الإغواء، وأنها كانت ممتنة له.

"سترين أنك ستشعرين بالتحسن بعد قليل" قال لها بعد أن دهن كاحلها بالمرهم ولفّه بالشاش بإحكام. طوال الوقت لم ترفع إنغريد نظرها عنه.

"هل لديك ويسكي؟ أحضر لي نصف كأس دون ثلج".

كانت كأنها تعرفه منذ ولدت. جلس مونتالبانو على كرسي بعد أن أعطاها الكأس، وجلست هي على حافة السرير.

"أتعلم شيئاً أيها المحقق؟" قالت إنغريد محدقة إليه، وكانت عيناها خضراوين لامعتين: "أنتَ أول رجل حقيقي ألتقيه في هذه الناحية منذ خمس سنوات".

"أفضل من لوباريللو؟".

"أجل".

"شكراً. والآن أصغي إلى أسئلتي".

"تفضّل".

كان مونتالبانو على وشك التفوه حين سمع رنين جرس الباب. لم يكن ينتظر أحداً، فذهب ليفتح مستغرباً. عند العتبة كانت آنّا، بملابس مدنية، تبتسم له.

"مفاجأة!".

دفعته جانباً ودخلت.

"شكراً على الحماسة. أين كنت طوال الليل؟ في مركز الشرطة أخبروني أنك هنا، جئت وكان كل شيء مطفأ. اتصلت خمس مرات على الأقل دون جدوى، وأخيراً رأيت النور".

حدقت إلى مونتالبانو الذي لم يفتح فمه.

"ماذا بك؟ أصابك الخرس؟ اسمع إذاً..." وتسمّرت. عبر باب غرفة النوم الذي تركه مفتوحاً رأت إنغريد شبه عارية وبيدها كأس. شحبت في البداية ثمّ احمرت غضباً.

"اعذراني" تمتمت وهي تندفع سريعاً نحو الخارج.

"فهمتِ خطأ!" صرخت إنغريد: "سأشرح لك كل شيء. أنا ذاهبة".

بغضب ركل مونتالبانو الباب ما جعل الجدار يهتز بينما هو يسمع سيارة آنّا تغادر وتندفع بالغضب ذاته الذي أطبق فيه الباب.

"اللعنة! ليس عليّ تفسير شيء".

"أنا ذاهبة" كانت إنغريد قد نهضت عن السرير بنصف وقفة وقفز نهداها خارج المنشفة.

"لا. لكن غطّي نفسك".

"اعذرني".

خلع مونتالبانو سترته وقميصه ووضع رأسه لبعض الوقت تحت صنبور الماء في الحمّام، ثم عاد للجلوس جوار السرير.

"أريد معرفة قصة القلادة بشكل واضح".

"حسناً. يوم الاثنين الماضي، جياكومو، زوجي، استيقظ على مكالمة هاتفية لم أفهمها، كنتُ في غاية النعاس. ارتدى ملابسه سريعاً وخرج. لكنه عاد بعد ساعتين وسألني أين القلادة لأنه لم يرها في المنزل منذ بعض الوقت. لم أستطع إخباره أنها في الحقيبة في منزل سيلفيو لأنه إن طلب أن يراها فلن أعرف بمَ أجيب. لذا قلت له إنني أضعتها منذ عام على الأقل، ولم أخبره بذلك خشية أن يغضب. تلك القلادة تساوي الكثير من المال، إضافة لكونه أهادها لي في السويد. لذا جعلني جياكومو أوقّع ورقةً بيضاء، أخبرني أنه سيستخدمها للتأمين".

"وقصّة المنارة كيف حدثت؟".

"آه، حدث هذا فيما بعد، حين عاد لتناول الغداء. أوضح لي أن محاميه، ريتزو، أخبره بالحاجة إلى شرح أكثر إقناعاً لشركة التأمين بشأن ضياعها، واقترح قصّة المانّاراً".

"المنارة" صحّح مونتالبانو بشيء من الصبر وقد باتت تلك اللكنة تزعجه.

"منارة، منارة" كررت إنغريد: "بالنسبة إليّ، صراحةً، لم تقنعني القصّة، بدت لي عرجاء ومختلقة جداً. ثمّ نبّهني جياكومو إلى أنني، من وجهة نظر كل من مررت بهم، عاهرة، ولذا خطرت له فكرة أن يصحبني إلى المنارة".

"أفهم".

"لكن أنا لم أفهم!".

"كانوا يفكرون في توريطك".

"لا أعرف هذه الكلمة".

"انظري؛ لوباريللو يموت في المنارة بينما هو رفقة امرأة أقنعته بالذهاب إلى هناك. صحيح؟".

"صحيح".

"حسناً. لقد أرادوا الإيهام بأن هذه المرأة هي أنت. الحقيبة حقيبتك، قلادتك، ملابسك في بيت لوباريللو، وأنت تجيدين القيادة في مجرى النهر... وعليّ أن أصل إلى نتيجة واحدة فقط، وهي أن اسم تلك المرأة هو: إنغريد سيوستروم".

"لقد فهمت" قالت ولزمت الصمت مثبتة عينيها في الكأس بين يديها. ثمّ غمغمت:

"غير ممكن".

"ما هو؟".

"أن يتفق جياكومو مع آخرين على أذيتي، كما تقول".

"ربّما أرغموه على الموافقة، وضع زوجك المادي ليس بحال جيدة، تعلمين ذلك؟".

"هو لم يخبرني بذلك، لكنني عرفت. إلا أنني واثقة أنه إن فعل ذلك فهو لم يفعله من أجل المال".

"أنا تقريباً مقتنع بهذا أيضاً".

"لماذا إذاً؟".

"قد يكون هناك تفسير آخر؛ أن يكون زوجك أرغم على إشراكك لإنقاذ شخص آخر أكثر أهمية بالنسبة إليه منك. انتظري".

ذهب إلى الغرفة الأخرى التي تحتوي مكتباً صغيراً مغطى بالأوراق، وأخذ الفاكس الذي أرسله إليه نيكولو زيتو.

"ولكن لإنقاذ شخص آخر مثل من؟" سألت إنغريد حالما رأته يعود: "إن مات سيلفيو وهو يمارس الحب فذلك ليس ذنباً يقع على أحد. هو لم يقتل".

"ليس حمايةً من القانون، إنغريد، بل من الفضيحة".

بدأت المرأة قراءة الفاكس. فاجأتها المقدمة ثم راحت تستمتع شيئاً فشيئاً. ضحكت ملء شدقيها عند فقرة نادي Polo– club. بعد ذلك مباشرة امتقع وجهها، تركت الملاءة تسقط على

السرير، وأحنت رأسها جانباً.

"هل هو، حموكِ، من كنتِ تصحبينه إلى صومعة لوباريللو؟".

بذلت إنغريد جهداً واضحاً للإجابة:

"نعم. في مونتيلوزا رأيت أنهم سيثرثرون عن ذلك. رغم أنني فعلت كل شيء لمنع حدوث الأمر. إنه الأمر الأكثر فظاعة الذي حدث لي طوال فترة وجودي في صقلية".

"لا حاجة أن تخبريني التفاصيل".

"أريد أن أوضح أنني لستُ من بدأ الأمر. قبل عامين كان على والد زوجي حضور مؤتمر في روما. دعاني أنا وجياكومو، لكن في اللحظة الأخيرة تعذر على زوجي الذهاب فأصرّ أن أذهب أنا، ولم أكن قد زرت روما بعد. كل شيء سار على ما يرام، لكن في الليلة الأخيرة دخل غرفتي، بدا لي مجنوناً. ذهبت معه لتهدئته، لكنه راح يصرخ ويهددني. في الطائرة، أثناء رحلة العودة، راح في لحظات يبكي ويقول إن ذلك لن يحدث مرة أخرى. هل تعلم أننا نعيش في المبنى نفسه؟ حسناً، في عصر أحد الأيام، وبينما زوجي في الخارج وأنا في السرير، حضر، كما في تلك الليلة، وهو يرتعش بكليّته. هذه المرة أيضاً انتابني الخوف، والخادمة كانت في المطبخ. في اليوم التالي أخبرت جياكومو أنني أريد تغيير المنزل فاستشاط غضباً، أنا كنتُ مصرّة، فتشاجرنا. أكثر من مرة أعدتُ الموضوع وكان يرفض.

من وجهة نظره كان محقاً. على كل حال حموي كان مصّراً، راح يقبلني، ويلمسني حالما يستطيع، مخاطراً أن يراه جياكومو مع زوجته. لذلك توسلت إلى سيلفيو أن يعيرني منزله بين وقت وآخر".

"هل كانت لدى زوجك أيّ شكوك؟".

"لا أعرف. فكرت في الأمر. في بعض الأحيان بدا لي أنه يعرف، وفي أحيان أخرى أقتنع أن لا".

"سؤال آخر، إنغريد: حين وصلنا إلى كابو ماسّاريا أخبرتني وأنا أفتح الباب أنني لن أعثر على شيء في الداخل. وحين رأيت كل شيء على حاله كما كان دائماً فوجئتِ كثيراً. هل أكد لك أحد ما أنّ كل شيء قد أخذ من منزل لوباريللو؟".

"أجل، لقد أخبرني جياكومو بذلك".

"كان زوجك على علم إذاً؟".

"انتظر، لا تربكني. حين أبلغني جياكومو بما عليّ قوله في المقابلة مع شركة التأمين، أي أنني كنت معه في المنارة، كان يقلقني أمر آخر؛ حقيقة أنه عاجلاً أو آجلاً، بعد موت سيلفيو، سيكون بإمكان أي شخص أن يكتشف منزله وملابسي وحقيبتي وأشيائي الأخرى داخله".

"من كان ليعثر عليها برأيك؟".

"أوه، لا أعرف، الشرطة، عائلته... أخبرت جياكومو بكل

شيء، وكذبتُ عليه كذبة، لم أقل له شيئاً بشأن والده، جعلته يفهم أنني كنتُ أذهب إلى هناك مع سيلفيو. في المساء أبلغني أن كل شيء على ما يرام، وأن أحد الأصدقاء تكفل بالأمر، وأنه في حال عثر أحد ما على الكوخ فلن يجد غير جدران مطلية بالأبيض. أنا صدقته. ماذا بك؟".

بوغت مونتالبانو بالسؤال.

"ماذا تقصدين بماذا بي؟".

"أنت تلمس مؤخرة رأسك باستمرار".

"آه، نعم، أشعر ببعض الألم. لا بدّ أنه بسبب نزولنا مجرى النهر. كيف هو كاحلك؟".

"أفضل. شكراً".

ضحكت إنغريد، وانتقلت من حالة مزاجية إلى أخرى، كما يحدث مع الأطفال.

"ما الذي يضحكك؟".

"مؤخرة رأسك، وكاحلي. نبدو مثل عاجزين في مستشفى".

"هل تريدين النهوض؟".

"لو عاد الأمر لي لبقيت هنا حتى صباح الغد".

"لا يزال هناك ما علينا فعله. ارتدي ملابسَك. هل تستطيعين القيادة؟".

-١٤-

سيارة إنغريد الحمراء ذات المقعدين كانت ما تزال مركونة في موقف مقهى مارينيلّا، من الواضح أنهم رأوا في سرقتها مخاطرةً كبيرة إذ ليس ثمّة الكثير منها في مونتيلوزا ومقاطعتها.

"اركبي سيارتكِ واتبعيني" قال مونتالبانو "سنعود إلى كابو ماسّاريا".

"يا إلهي! ماذا سنفعل؟" قالت إنغريد متجهمة، لم يكن لديها أدنى رغبة في ذلك، فشرح لها المحقق الأمر جيداً:

"إنه لمصلحتكِ البحتة".

***

بواسطة ضوء المصابيح الأمامية لاحظ المحقق فوراً أنّ بوّابة الفيلا كانت مفتوحة. نزل، ودنا من سيارة إنغريد.

"انتظريني هنا. أطفئي المصابيح. هل تذكرين إن كنا قد أغلقنا البوابة عند المغادرة؟".

"لا أذكر جيداً، لكن أعتقد أننا فعلنا".

"استديري بالسيارة بأقل ضوضاء ممكنة".

فعلت المرأة ذلك وصارت مقدمة السيارة ناحية طريق المقاطعة.

"اسمعيني وأصغي جيداً. سأذهب إلى الأسفل وأنت تبقين أذنيك على أهبة الاستعداد، إن سمعتني أصرخ، أو شعرتِ بأي شيء غريب، لا تفكري في الأمر، ارحلي، امضي إلى البيت".

"هل تظن بوجود أحد ما في الداخل؟".

"لا أعلم. أنتِ افعلي ما طلبته إليك".

من سيارته أخذ الحقيبة والمسدس، وراح يخطو حذراً، نزل الدرج، فتح البوابة هذه المرة دون صعوبة أو ضوضاء. اجتاز العتبة، المسدس في قبضته. الإضاءة في الصالون كانت خافتة بسبب انعكاس البحر. فتح باب الحمّام بركلة من قدمه، وبالتوالي الأبواب الأخرى. شعر بشيء من الكوميديا، كواحد من أبطال بعض الأفلام الأميركية. لم يكن هناك أحد في المنزل، ولا أثر لوجود شخص آخر، لم يستغرق الأمر طويلاً ليقتنع أنه نسي إغلاق البوابة عند المغادرة. فتح النافذة في الصالون، نظر إلى الأسفل، في تلك النقطة بدت كابو ماسّاريا معلقة فوق البحر

كمقدمة سفينة، ولا بدّ أن الماء يلاطمها في الأسفل. أثقل الحقيبة بأدوات المائدة الفضية وبمنفضة سجائر من الكريستال ثقيلة الوزن، لوح بالحقيبة فوق رأسه وقذفها خارجاً، بذلك سيصعب أن يعثروا عليها. ثم أخذ من خزانة غرفة النوم كلّ الأشياء العائدة لإنغريد. خرج، وتأكد أنه أغلق البوابة جيداً. بمجرد ظهوره على قمة الدرج غمره ضوء المصابيح الأمامية لسيارة إنغريد.

"أخبرتكِ أن تبقيها مطفأة، لماذا استدرتِ بالسيارة؟".

"لم أرغب أن أتركك وحيداً في حال حدوث مشكلة".

"هذه ملابسك كلها".

أخذتها ووضعتها على الكرسي المجاور.

"والحقيبة".

"رميتها في البحر. عودي الآن إلى المنزل، ما عادوا يملكون ما يورطونك به".

نزلت إنغريد، دنت من مونتالبانو وعانقته. بقيت هكذا لبرهة ورأسها متّكئ إلى صدره. ثمّ، ودون أن تنظر إليه، صعدت إلى سيارتها وغادرت.

مباشرةً عند مدخل الجسر فوق المستنقع كانت سيارة متوقفة، تقطع الطريق تقريباً، ورجل يقف متكئاً إلى سطحها مغطياً وجهه بكفيه ويترنح بعض الشيء.

"ماذا هناك؟" سأل مونتالبانو وهو يفرمل.

التفت الرجل، كان وجهه مغطى بالدماء، وهو يخفي جرحاً كبيراً وسط جبهته.

"ابن قحبة" أجاب.

"لم أفهم، هلا شرحت بشكل أفضل". نزل مونتالبانو من سيارته ودنا منه.

"كنت أسير بهدوء وتجاوزني ابن شرموطة، وأوشك يخرجني عن الطريق. ساءني ذلك فأسرعت خلفه وأنا أزعجه بالضوء المرتفع. فتوقف في لحظة معينة واضعاً سيارته في عرض الطريق. نزل وهو يحمل بيده شيئاً لم أتبينه، خشيت أنه سلاح، راح يقترب مني، كنت قد تركت النافذة مفتوحة، وقبل أن أتفوه بحرف عاجلني بضربة بذلك الشيء الذي عرفت أنه كان مفتاحاً إنكليزياً".

"هل تحتاج مساعدة؟".

"لا، لقد بدأ النزيف يتوقف".

"هل تريد تقديم شكوى؟".

"لا تضحكني فرأسي يؤلمني".

"هل ترغب في أن أصحبك إلى المستشفى؟".

"اذهب لأشيائك لو سمحت".

***

منذ متى لم ينم ليلة كما أمر الله؟ والآن هناك هذا الألم اللعين في قفا رأسه، لا يمنحه برهةً من الراحة، يتواصل حتى يتوقف أسفل بطنه، أو في بطنه الخاوية، لا فرق، ألم متواصل، مكتوم، مثير للإزعاج، دون أوجاع حادة، وربّما هذا أسوأ ما في الأمر. أضاء النور، كانت الساعة الرابعة فجراً. على الكومودينة أنبوبة المرهم ولفافة الشاش اللتان استخدمهما لمعالجة أنغريد. أخذهما، وأمام مرآة الحمّام دهن رقبته ببعض المرهم علّه يريحه، ثمّ لفها بقطعة من الشاش ثبتها بلاصق طبي. الضماد جعل رقبته ربما مشدودة أكثر، ما جعله يجد صعوبة بتحريك رأسه. نظر في المرآة. عندئذ ومض في ذهنه وميض خافت، أخفض درجة ضوء الحمّام، بدا له أنه صار شخصية كرتونية تملك القدرة على بث الأشعة السينية من عينيها فتتمكن من رؤية بواطن الأشياء.

في الثانوية كان لديهم كاهن عجوز يدرّس الدين.

"الحقيقة هي نور" قال في أحد الأيام.

مونتالبانو كان تلميذاً كسولاً لا طاقة له على الدراسة، ودوماً يجلس في المقعد الخلفي.

"والآن ستقول إنه في حال قال كل أفراد العائلة الحقيقة، فإنهم يوفرون الفاتورة".

كان ذلك تعليقه بصوت مرتفع، والذي تسبب بطرده من الفصل.

الآن، وبعد مرور ثلاثين عاماً على الواقعة، اعتذر في ذهنه من الكاهن العجوز.

***

"أيّ وجه شاحب لديك!" صاح فاتزيو حالما رآه يصل مركز الشرطة: "هل تشعر بالإعياء؟".

"دعني وشأني" كانت هذه إجابة مونتالبانو.

"هل من أخبار حول غامبارديللا؟ هل عثرتم عليه؟".

"لا شيء. لقد اختفى. خطر لي ونحن نبحث عنه قريةً قرية أن الكلاب أكلته".

كان يشوب نبرة الرقيب ما لم يقنعه. إنه يعرفه منذ سنوات بعيدة.

"وماذا هناك؟".

"غاللو ذهب إلى غرفة الطوارئ، لقد أصيب في ذراعه، وليس ثمة ما هو خطير".

"كيف حدث ذلك؟".

"في سيارة الخدمة".

"حطمها؟ كان يقود بسرعة؟".

"أجل".

"هل أنت بحاجة إلى الماما لتسحب الكلمات من فمك؟".

"حسناً؛ أرسلته على وجه السرعة إلى سوق البلدة، ثمة شجار نشب هناك، مضى مسرعاً، وأنت تعرف كيف. انحرف عن الطريق واصطدم بالعمود. السيارة تم نقلها إلى الكاراج الخاص بنا في مونتيلوزا، وأعطونا واحدة أخرى".

"أخبرني الحقيقة فاتزيو. هل كانت الإطارات ممزقة؟".

"نعم".

"ألم يتحقق غاللو منها قبل الصعود كما أوصيته مئة مرة؟ لا تريدون أن تفهموا أنّ تمزيق الإطارات هو الرياضة الوطنية لهذا البلد المنيوك؟ قل له ألا يجيء اليوم إلى المكتب لأني إن رأيته سأنكح مؤخرته".

أغلق باب غرفته، كان غاضباً بالفعل، بحث في صندوق من الصفيح حيث يحتفظ بكل شيء، من الطوابع إلى الأزرار المتساقطة، عثر على مفاتيح المصنع القديم، غادر دون أن يلقي التحية.

***

على العارضة المبللة التي عثر جوارها على الحقيبة جلس يحدق في ذلك الشيء الذي استعصى عليه فهمه في المرة السابقة إذ بدا نوع من القساطل المخصصة لتجميع

الأنابيب، والذي استطاع الآن تبيّنه بوضوح؛ إنه طوق ممّا يُستخدم لتخفيف آلام الرقبة، يبدو كأنه جديد رغم وضوح أنه مستعمل. بسبب الإيحاء عاودته أوجاع رقبته. نهض، أخذ الطوق، خرج من المصنع القديم، وعاد إلى مركز الشرطة.

"أيها المحقق، أنا ستيفانو لوباريللو".

"تفضل أيها المهندس".

"لقد أبلغتَ ابن خالتي جورجيو ذلك اليوم أنك تود رؤيته صباح اليوم عند العاشرة. لكن قبل خمس دقائق فقط اتصلت خالتي، أمّه، ولا أعتقد أن جورجيو قادر على المجيء لرؤيتكم كما كان ينوي".

"ماذا حدث؟".

"لا أعرف تماماً، لكن يبدو لي، بحسب ما قالت خالتي، أنه أمضى الليلة خارج المنزل. لقد عاد قبل قليل، قرابة التاسعة، وكان في حال يرثى لها".

"اعذرني أيها المهندس، لكن أعتقد أنّ أمك أخبرتني أنه كان متعوداً أن ينام في منزلكم".

"هذا صحيح، لكنه منذ وفاة أبي انتقل إلى منزلهم. دون أبي صار يشعر بعدم الراحة معنا. على كل حال، طلبت خالتي الطبيب وأعطاه حقنة مهدئة. وهو الآن نائم بعمق.

أشعر بالأسف عليه، لقد كان، كما تعلم، شديد الارتباط بوالدي".

"لقد عرفت ذلك. أخبر ابن خالتك، إن رأيته، أنني فعلاً أحتاج الحديث إليه. لكن متى استطاع، لا داعي للعجلة، ليس هناك ما هو مهم".

"بالتأكيد. آه، أمي بقربي، وتهديك تحياتها".

"أبادلها المثل. أخبرها شديد احترامي لها".

"سأفعل. شكراً".

***

أمضى مونتالبانو ساعةً أيضاً في توقيع أوراق وكتابة أخرى. كانت معقدةً وعديمة الجدوى استبيانات الوزارة. غاللوتزو، بانفعال شديد، لم يكتفِ بفتح الباب دون أن يطرق، بل فتحه على اتساعه ليصطدم بالحائط.

"يا لك من منيك! ماذا هناك؟".

"الآن الآن عرفت من زميل في مونتيلوزا أنهم قتلوا المحامي ريتزو. وجدوه قرب سيارته في منطقة سان جيوسيبوتزو. إن أردت يمكنني الحصول على معلومات أفضل".

"انسَ الأمر، سأذهب بنفسي".

"نظر مونتالبانو إلى ساعته، كانت الحادية عشرة.

خرج مسرعاً".

***

في منزل سارو لم يجب أحد. طرق مونتالبانو الباب المجاور. فتحت الباب عجوز بهيئة محاربة.

"ماذا هناك؟ ما هذا الأسلوب المزعج؟".

"سامحيني سيدتي، أنا أبحث عن السادة مونتابيرتو".

"السادات مونتابيرتو؟ هدول الزبالين الحَوَش!".

يبدو أن لا دماء طيبة تجري بين العائلتين.

"ومين إنت؟".

"أنا محقق من الأمن العام".

أشرق وجه المرأة، وراحت تنادي بصوت ذي نوتات حادّة من السعادة.

"توريدرو! توريدرو، تعال فوراً، تعال".

"من يكون؟" سأل متوجساً عجوز بالغ النحول.

"هذا محقق! شايف كيف جاء لأخذهم؟ شايف كيف يفتش عنهم؟ شفت أنهم كانوا ناس نَوَر؟ شفت إنو اللي بيهرب نهايته في الحبس؟".

"متى هربوا سيدتي؟".

"من نصف ساعة، اشتغل. معهم ولد. إذا أسرعت بتلحقهم

فوراً فوراً".

"شكراً سيدتي. سأسرع في ملاحقتهم".

لقد فعلوها إذاً، سارو وزوجته والطفل.

***

على طول الطريق إلى مونتيلوزا تمّ إيقافه مرتين، الأولى من قبل دورية من جنود الألب، والأخرى من الدرك. والأسوأ حضر في الطريق إلى سان جيوسيبوتزو، عملياً بين الحواجز والتفتيش استغرق الأمر ثلاثة أرباع الساعة لاجتياز خمسة كيلومترات. في الموقع كان المفوض، جنرال من الدرك، ومركز شرطة مونتيلوزا بأكمله.

كانت أيضاً آنّا التي تظاهرت بعدم رؤيته. جاكوموتزي يتلفت حوله بحثاً عمّن يخبره كل التفاصيل وبدقة، وحال رؤيته لمونتالبانو سارع لملاقاته.

"اغتيال وحشي مكتمل الأوصاف".

"كم رصاصة؟".

"واحدة. هي رصاصة واحدة على الأقل. كان المحامي المسكين قد غادر مكتبه في السادسة والنصف صباحاً، حاملاً بعض الأوراق ومتجهاً مباشرة إلى تابّيتا. كان على موعد مع أحد العملاء. من المكتب غادر وحيداً، هذا مؤكد، لكنه على

الطريق حمل معه أحد معارفه في السيارة".

"ربما يتعلق الأمر بشخص طلب توصيلة".

انفجر جاكوموتزي بضحكة من القلب جعلت عدداً من الأشخاص يلتفتون إليه.

"هل ترى أنت أنّ ريتزو مع كل ما كان يحمله سيقبل أن ينقل معه شخصاً لا يعرفه؟ لقد كان يتوجب عليه الحذر حتى من ظلّه! أنت تعلم أفضل مني أن ريتزو كان ظهير لوباريللو. لا، لا، بكل تأكيد كان واحداً من معارفه، أحد أفراد المافيا".

"تقول رجل مافيا؟".

"أقطع يدي إن لم يكن. المافيا رفعت السعر، وتطالب بالمزيد دوماً، والسياسيون ليسوا في وضعية تسمح لهم بتلبية المطالب دوماً. لا بدّ أنه ارتكب بعض الهَنات الآن بعدما شعر أنه أقوى إثر يوم الترشيح. وهم لم يغفروا له".

"أهنئك جياكوموتزي، هذا الصباح أنت متوقد بشكل استثنائي، وأرى أنك أخفقت. كيف يمكنك أن تكون متيقناً مما تقول؟".

"من الطريقة التي قتله فيها. في البداية قام بركله في مؤخرته، ثم جعله يركع، ووضع السلاح في مؤخرة رأسه وأطلق النار".

حالاً عاودت مونتالبانو نوبة الألم.

"ما نوع السلاح؟".

"يقول باسكوانو إنه بالنظر والتخمين، مع الأخذ بالاعتبار الثقب الذي دخلت وخرجت منه الرصاصة، وبما أن فوهة السبطانة كانت ملتصقة بالجلد، فإنه مسدس ٧,٦٥".

"سيد مونتالبانو!".

"المفوض يناديك" قال جياكوموتزي وانسحب. مدّ المفوض يده إلى مونتالبانو وابتسما.

"كيف لك أنت أيضاً أن توجد هنا؟".

"في الحقيقة، سيدي المفوض، أنا في طريقي للذهاب. كنتُ في مونتيلوزا، سمعت الخبر فجئت فقط من باب الفضول".

"أراك الليلة إذاً. أنصحك ألا تفوّتها، زوجتي تنتظرك".

***

كان تخميناً، مجرد تخمين واهٍ، حتى إنه لو توقف لحظةً للنظر في الأمر فإنه سيتلاشى. مع ذلك بقي يدوس دواسة البنزين بأقصى طاقةٍ مخاطراً بأن تطلق عليه النار عند الحاجز. عندما وصل إلى كابو ماسّاريا لم يطفئ المحرك، قفز من السيارة تاركاً الباب مفتوحاً، فتح البوابة الخارجية وباب البيت بسهولة، وهرع إلى غرفة النوم. كان المسدس قد اختفى من

درج الكومودينة. وبّخ نفسه بشدة، لقد ارتكب حماقة؛ بعد اكتشافه السلاح في المرّة الأولى، عاد مرتين إلى هذا البيت مع إنغريد ولم يكلف نفسه عناء التحقق من وجود السلاح في مكانه، حتى عندما وجد البوابة مفتوحة أقنع نفسه باطمئنان أنه من نسي إغلاقها.

***

"ها أنا الآن أهيم على وجهي" فكّر بمجرد وصوله إلى البيت. كان يعجبه تعبير "أهيم على وجهي" والذي يعني له التجول من غرفة إلى غرفة دون غرض محدد، والقيام بالفعل بأشياء لا جدوى منها. وهذا ما فعله؛ رتّب الكتب بشكل أفضل، قام بترتيب طاولة المكتب، قوّم اللوحة على الحائط، وقام بتنظيف فرن الغاز. هام على وجهه. لم يكن لديه شهية للطعام، لم يذهب إلى المطعم، ولم يفتح الثلاجة حتى لينظر ماذا أعدّت آديلينا له.

كعادته، أدار التلفاز عند دخوله. أول خبر ذكره المتحدث في Televigàta كان تفاصيل مقتل المحامي ريتزو. التفاصيل، لأن حادثة الموت تلك كانت نسخةً استثنائية. الصحافي لم يكن لديه أدنى شك بأن المحامي قتل بوحشية على يد المافيا التي خشيت من حقيقة أنّ القتيل كان لتوه قد ترقّى إلى منصب

سياسي رفيع الشأن، منصب سيسمح له بتطوير مكافحة الجريمة المنظمة. لأن شعار الحزب كان: حرب دون هوادة ضد المافيا. نيكولو زيتو، الذي عاد على عجل من باليرمو، تحدث أيضاً عن المافيا إلى Reteliberà لكنّه فعل ذلك بطريقة غاية في التعقيد بحيث لا يفهم شيئاً مما قاله. غير أنه بين السطور، أو بالأحرى، بين الكلمات، شعر مونتالبانو أنّ زيتو كان يفكر في تسوية حسابات قاسية دون أن يصرّح بذلك خشية إضافة دعوى قضائية جديدة إلى المئات المرفوعة ضده فعلاً. سئم مونتالبانو بعد ذلك من تلك الثرثرة الفارغة، أطفأ التلفاز، أرخى الستائر لحجب ضوء النهار، وارتمى على السرير كما هو بملابسه، كان يرغب في الغيبوبة. كلمة أخرى كانت تعجبه، وهي تعني أن يغيب عن نفسه بمقدار ما تعني الابتعاد عن المجتمع المتمدن. وكلا المعنيين أكثر من ملائمين لمونتالبانو.

-١٥-

أكثر من وصفة جديدة لطهي الأخطبوط، اختراع السيدة إيلسا، زوجة المفوض، بدا لمذاق مونتالبانو إلهاماً حقيقياً. أخذ قطعة أخرى كبيرة وحين شعر أنها على وشك الانتهاء راح يبطئ عملية المضغ لإطالة أمد المتعة التي تمنحه إياها الوجبة ولو لبرهة قصيرة. السيدة إيلسا كانت تراقبه بسعادة، كحال جميع الطباخين المهرة الذين يستمتعون بتعابير الانتشاء التي ترتسم على وجوه من يتذوقون الأطباق التي أعدوها، ومونتالبانو، بفضل تعابير وجهه، كان من الضيوف المفضلين.

"شكراً، شكراً بحق" قال لها المحقق أخيراً. ثم تنهّد. لقد قام الأخطبوط بنوع من المعجزة، لأنه، إن كان مونتالبانو، جزئياً، بات يشعر الآن بسلام مع الناس والله، فإنه للحقيقة أيضاً شعر بالهدوء تجاه نفسه أيضاً.

انسحبت السيدة مع انتهاء العشاء بعدما وضعت، بمنتهى

الحكمة، زجاجة "تشيفاز" للمحقق، و"أمارو" لزوجها.

"أنتما الآن تمضيان للحديث عن موتاكما القتلى الحقيقيين، وأنا أذهب لأشاهد في التلفاز الموتى المزيفين. أنا أفضلهم".

هي طقوس تتكرر مرة واحدة على الأقل كل خمسة عشر يوماً. المفوض وزوجته كانا بغاية اللطف مع مونتالبانو، وهذا اللطف من قبل الزوجين كان يبادلهما إياه بشكل كبير. المفوض في النهاية هو شخص مثقف ومتحفظ، وشخصية مختلفة تقريباً في أوقات أخرى.

تحدثا عن الوضع السياسي الكارثي، المخاطر المجهولة لتزايد البطالة على مستقبل البلاد، الحالة المزلزلة للنظام العام، ثمّ انتقل المفوض إلى سؤال مباشر:

"أود أن تفسّر لي لماذا لم تغلق قضية لوباريللو بعد؟ لقد تلقيت اليوم مكالمة قلقة من لو بيانكو".

"كان غاضباً؟".

"لا، قلت لك كان قلقاً فقط، مرتبكاً، أو بالأحرى، إنه لا يفهم سبب المطمطة. وللحقيقة، أنا كذلك. انظر، مونتالبانو، أنت تعرفني، وتعرف أنني لن أسمح لنفسي بممارسة أيّ ضغوط على أحد المسؤولين عندي لقول شيء بطريقة أو بأخرى".

"أعرف ذلك جيداً".

"إذاً، إن كنت أسألك هنا فمرد ذلك إلى فضول شخصي.

تفهمني؟ أنا الآن أتحدث إلى مونتالبانو الصديق، ليكن هذا في حسبانك. صديق أعرف فطنته وذكاءه، وقبل كل شيء، رقيّه في العلاقات الإنسانية وهو الأمر الذي صار نادراً هذه الأيام".

"أنا أشكرك سيدي المفوض. وسأكون صادقاً معك كما تستحق. الأمر الذي جعلني متشككاً على الفور كان هو المكان الذي وجدت فيه الجثة. كنتُ متفاجئاً، وبشكل كبير، فهو أسلوب منافٍ لشخصية وسلوك لوباريللو؛ رجل داهية، حصيف، وطموح. تساءلتُ: لماذا قام بذلك؟ لماذا يقصد المنارة، وقد صارت بيئةً خطرة، لممارسة الجنس ويغامر بتشويه صورته؟ لم أعثر على إجابة. انظر، سيدي المفوض، كان الأمر، قياساً بما حدث، كما لو أنّ رئيس الجمهورية يموت بنوبة قلبية بينما هو يرقص الروك في نادٍ ليلي مبتذل".

رفع المفوض يده لإيقافه.

"مقارنتك غير دقيقة" وجه له الملاحظة بابتسامة ملغومة: "لدينا بعض الوزراء مضوا مؤخراً للرقص في ملهى أكثر أو أقل من مبتذل ولم يموتوا".

أوشكت كلمة "للأسف" أن تفلت من بين شفتيه.

"لكن الحقيقة تبقى" تابع مونتالبانو بدقة: "أن هذا الانطباع الأولي أكدته لي بشكل كبير أرملة المهندس".

"هل التقيتها؟ سيدة رأسها مليء بالأفكار".

"كانت هي السيدة التي سألتني ذلك، وهي من كانت خلف التوصية بالأمر. في لقائي معها بالأمس أخبرتني أنّ زوجها كان يملك صومعةً في كابو ماسّاريا، وأعطتني مفاتيحها. فما السبب الذي يدفعه أن يذهب لفضح نفسه في مكان كالمنارة؟".

"هذا ما يثير تساؤلي أنا أيضاً".

"لنفترض، للحظة، محبةً بالنقاش، أنه ذهب إلى هناك، وأنه سمح لامرأة تملك قدرة استثنائية على الإقناع أن تقنعه بذلك. امرأة ليست من المكان. صحبته إلى هناك عبر طريق بمنتهى الوعورة. وتذكّر أن المرأة هي من كانت تقود السيارة".

"تقول طريق وعر؟".

"أجل. لا أملك شهادات دقيقة فقط عن الأمر، بل إنني دفعت الرقيب لدينا لاختباره بنفسه. السيارة عبرت المجرى الجاف لنهر كانيتّو ما أدّى إلى تحطم نظام التعليق فيها. حال توقف السيارة تدخل مباشرة في أجمة كبيرة من الشجيرات عند المنارة، تقفز المرأة إلى حضن الرجل الجالس جوارها وتبدأ بممارسة الحب، خلال ذلك يصاب المهندس بالنوبة التي تؤدي لوفاته. رغم ذلك لا تصرخ المرأة ولا تطلب المساعدة، ببرودة الجليد تنزل من السيارة، وتمشي ببطء على طول الطريق المؤدي إلى المقاطعة. تصعد إلى سيارة تصل فجأة، وتختفي".

"بالطبع كل ما في الأمر غريب. هل المرأة من طلبت توصيلة؟".

"لا يبدو ذلك. لقد التقطت الإشارة. ولدي شهادة أخرى بهذا الخصوص. السيارة التي جاءت لأخذها وصلت مسرعة وبابها مفتوح. كانت تعرف بمن ستلتقي ولم تدع دقيقة واحدة من الوقت تضيع".

"اعذرني أيها المحقق، ولكن هل دونت كل هذه الشهادات في المحضر؟".

"لا. لم يكن هناك سبب لذلك. كما ترى فالحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن المهندس مات ميتة طبيعية. رسمياً، لا أملك سبباً للتحقيق".

"حسناً، إن كانت الأمور كما تقول سيكون هناك، على سبيل المثال، عجز عن المساعدة".

"توافقني على أن هذا هراء؟".

"أجل".

"حسناً، كنت في هذه الحال عندما أشارت السيدة لوباريللو لملاحظة أساسية، وهي أن زوجها عند وفاته كان يرتدي سروالاً داخلياً بالمقلوب".

"انتظر" قال المفوض: "لنتروَّ قليلاً، كيف عرفت السيدة أن زوجها كان يرتدي سروالاً داخلياً مقلوباً، إن كان هذا صحيحاً؟

فبحسب ما أعلم لم تكن السيدة حاضرةً في مكان الحادثة ولا حتى عند فتح نتائج الطب الشرعي".

اضطرب مونتالبانو، لقد تحدث باندفاع غير منتبه أنه كان يتوجب عليه إبقاء جياكوموتزو بعيداً لأن الحقيقة هي أن زميله من أعطى الصور للسيدة. لكن لم يعد لديه مخرج.

"السيدة حصلت على صور الطب الشرعي. لا أعرف كيف حصلت عليها".

"ربما أعرف أنا" قال المفوض متجهماً.

"لقد تفحصتها بدقة بواسطة عدسة مكبرة، وعرضتها عليّ، وهي محقة".

"وانطلاقاً من هنا كوّنت السيدة فرضيتها؟".

"طبعاً. هي تبدأ من فرضية أنه لو كان زوجها قد ارتدى سرواله الداخلي بطريقة خطأ بالصدفة، فإنه دون شك سيلاحظ ذلك خلال النهار، فهو مضطر للتبول عدة مرات في اليوم. كان يأخذ مدراً للبول. لذا، وانطلاقاً من هذه الفرضية، تعتقد السيدة أن المهندس بوغت بوضعية أقل ما يقال عنها محرجة، واضطر لارتداء ملابسه على عجل والمضي إلى المنارة، ودوماً بحسب السيدة، قد يكون بوغت في موقف لا مجال للمساومة فيه، ما يرغمه على الأقل على الانسحاب من السياسة. بهذا المعنى، كان هناك المزيد".

"لا تنقص شيئاً عني".

"النبّاشان اللذان عثرا على الجثة، وقبل إخطار الشرطة، أحسّا بضرورة الاتصال بالمحامي ريتزو، الذي كانا يعرفان أنه ظل لوباريللو. حسناً، ريتزو ليس فقط أنه لم يظهر أي مفاجأة، دهشة، استغراب، قلق، تأهب، بل لا شيء، حتى إنه دعا الاثنين للإبلاغ عن الواقعة فوراً".

"وكيف عرفت هذا؟ هل لديك مراقبة هاتفية؟" سأل المفوض بدهشة.

"لا مراقبة إطلاقاً. إنّها النسخة الأمينة للمقابلة القصيرة التي دوّنها أحد النباشين. لقد فعل ذلك لأسباب يطول شرحها".

"كان يأمل بالابتزاز؟".

"لا، كان يأمل بكتابة مسرحية. صدقني؛ لم يكن لديه أي نية لارتكاب مخالفة. وهنا ندخل صلب الموضوع، وهو ريتزو".

"انتظر، كنتُ قد شرعت، هذه الليلة، بإيجاد طريقة لتوبيخكَ حول رغبتك غالباً بتعقيد الأمور البسيطة. أنت بالتأكيد قرأت "كانديدو" لِشاشا. إن كنت تتذكر، البطل في لحظة معينة يقول إنه يمكن للأشياء أن تكون دائماً تقريباً بسيطة؟ أريد أن أذكرك بهذا فقط".

"صحيح، لكن كما ترى، كانديدو يقول دائماً تقريباً، ولم يقل دائماً. إنه يترك مجالاً للاستثناءات. وفي حالة لوباريللو هذه

الأشياء مرتبة بطريقة تبدو بسيطة".

"وهل هي معقدة بدلاً من ذلك؟".

"أكثر بكثير. وبالعودة إلى "كانديدو"، هل تذكر العنوان الفرعي؟".

"طبعاً؛ حلمٌ صنع في صقلية".

"هذا هو، وبدلاً من ذلك نحن هنا في كابوس. أجازف بالفرضية التي يصعب تأكيدها الآن؛ أن ريتزو قد قتل. إذاً، في وقت متأخر من عصر يوم الأحد، قرابة الساعة السابعة، أخطر المهندس زوجته أنه سيتأخر كثيراً هذا المساء، وأنّ لديه اجتماعاً سياسياً مهماً. وبدلاً من ذلك يذهب إلى منزله الصغير في كابو ماسّاريا من أجل لقاء عاطفي. أقول حالاً إن أي تحقيق محتمل حول الشخص الذي كان بصحبة المهندس سيكون غاية في الصعوبة، لأن لوباريللو كان بارعاً باستخدام كلتا يديه".

"اعذرني، ولكن ماذا تعني؟ يستخدم كلتا يديه! في بلدتي نقول إن المرء يجيد استخدام يسراه أو يمناه بلا مبالاة، سواء اليدين أو الأقدام".

"وبطريقة غير لائقة تقال عن أولئك الذين اعتادوا الذهاب مع امرأة أو رجل دون تفريق".

كانا جادين، وبدا كأنهما أستاذان يجمعان مفردات جديدة.

"لكن ما الذي تقوله!" قال المفوض بذهول.

"لقد جعلتني السيدة لوباريللو أفهم ذلك بوضوح شديد. والسيدة لم تكن معنية على الإطلاق بأن تجعل في حسباني شيئاً دون آخر. وتحديداً في هذا المجال".

"هل ذهبت إلى البيت الصغير؟".

"أجل. لقد أعيد تنظيفه بالكامل. هناك فقط أشياء تعود للمهندس، ولا شيء آخر".

"تابع فرضيتك".

"أثناء ممارسة الجنس، أو بعده مباشرة كما هو مرجح، نظراً إلى آثار السائل المنوي التي عثر عليها، يموت لوباريللو، والمرأة التي معه...".

"لحظة" قاطعه المفوض: "كيف تستطيع القول بكل هذه الثقة إنها كانت امرأة؟ لتوك قمت بنفسك بتوضيح الأفق الجنسي الواسع للمهندس".

"أقول ذلك لأنني واثق. المرأة، إذاً، وبمجرد إدراكها أن عشيقها قد مات، تفقد رأسها، تتخبط تائهة، فتفقد حتى القلادة التي كانت ترتديها دون أن تنتبه لذلك. ثمّ تهدأ وتدرك أن الشيء الوحيد الممكن لها فعله هو الاتصال بريتزو، رجل الظل للوباريللو، لتطلب مساعدته. يخبرها ريتزو أن تغادر المنزل حالاً، ويقترح عليها إخفاء المفتاح في مكان ما ليتمكن من دخول البيت وطمأنتها، وأنه سيهتم بكل شيء، وأن أحداً لن

يعلم بذلك الاجتماع الذي انتهى بهذه الطريقة المأسوية. تهدأ المرأة وتغادر المسرح".

"ماذا؟ تغادر المسرح؟ أليست هي المرأة التي أخذت لوباريللو إلى المنارة؟".

"نعم، ولا. أنا أمضي بالفرضية. يهرع ريتزو إلى كابا ماسّاريا، يلبس الجثة الملابس بعجالة. ينوي إخراجها من هناك وجعل العثور عليها يتم في مكان أقل خطورةً. عندئذ فقط يجد القلادة على الأرض، ويكتشف وجود ملابس المرأة التي هاتفته في الخزانة. يقرر عندئذ أن هذا اليوم ربما يكون يوم حظّه".

"بأي معنى؟".

"بمعنى أنه بات قادراً أن يسند الجميع إلى الجدار، الأصدقاء والأعداء السياسيين، ليصبح الرقم واحد في الحزب. المرأة التي هاتفته هي إنغريد سيوستروم، سويدية، وهي زوجة ابن السيد كاردوماني، خليفة لوباريللو الطبيعي، وهو رجل لا يرغب بالتأكيد أن يشترك في أي أمر مع ريتزو. الآن، يُفهَم أمر واحد هو المكالمة الهاتفية، والآخر هو الدليل القاطع أن سيوستروم كانت عشيقة لوباريللو. لكن هناك المزيد للقيام به. ريتزو يدرك أنّ أصدقاء التيار سيفلقون أنفسهم لوراثة لوباريللو في السياسة، لذا، وللقضاء عليهم، لا بد من وضعهم في حالةٍ يخجلون فيها من رفع راية لوباريللو. من الضروري أن يبدو قذراً وملطخاً.

تخطر له الفكرة العبقرية في أن يتم العثور عليه في المنارة. وأمام ذلك لماذا لا يجعلنا نعتقد أن المرأة التي رغبت في الذهاب إلى المنارة هي إنغريد سيوستروم، امرأة أجنبية، غريبة عن العادات المحلية، باحثة عن الإثارة الجنسية؟ إن نجحت المكيدة يكون كارداموني بذلك رهن يديه. اتصل باثنين من رجاله، اللذين نعرفهما، دون أن ننجح بإثبات ذلك، ويكونان العاملين في دكان الجزارة في الأسفل. أحد هؤلاء يدعى أنجيلو نيكوترا، وهو مثلي جنسي معروف في دوائرهم باسم مارلين".

"كيف عرفت حتى اسمه؟".

"أخبرني به أحد مخبريّ، وهو رجل أثق به تماماً. نحن صديقان بمعنى من المعاني".

"جيجيه؟ صديقك القديم من أيام المدرسة؟". وقف مونتالبانو فاغراً فاه وهو يحدق إلى المفوض.

"لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أنا أيضاً شرطي. تابع".

"مع وصول رجاله، يجعل ريتزو مارلين يرتدي ملابس المرأة، ويضع القلادة، ويطلب إليه نقل الجثة إلى المنارة عبر الطريق الوعر، تماماً عبر مجرى النهر الجاف".

"ما الذي رغب في الحصول عليه؟".

"دليل آخر ضد سيوستروم، بطلة سباق السيارات التي تجيد القيادة في طريق كهذا".

"أنت واثق من ذلك؟".

"نعم. كنتُ معها حين جعلتها تسلك ذلك المسار".

"يا إلهي" تنهّد المفوض: "هل أرغمتها على ذلك؟".

"ولا حتى بالأحلام! كان ذلك بموافقتها المطلقة".

"هلا أخبرتني كم شخصاً تستخدم في ذلك؟ هل تدرك أنك تلعب بمواد متفجرة؟".

"الأمر ينتهي بفقاعة صابون، صدقني. حسناً؛ بينما الاثنان يغادران مع الميت، ريتزو الذي استولى على المفاتيح التي كان يحملها لوباريللو، يعود إلى مونتيلوزا، ويقوم بلعبة سهلة للحصول على المستندات السرية الأكثر أهمية بالنسبة إلى لوباريللو. في هذه الأثناء ينفذ مارلين ما طلب إليه على أكمل وجه. يغادر السيارة بعد الجماع، ويبتعد نحو المصنع القديم المهجور فيخفي القلادة قرب الأجمة، ويرمي الحقيبة خلف السور الحجري".

"عن أي حقيبة تتحدث؟".

"إنها حقيبة سيوستروم، وعليها الحروف الأولى من اسمها، وجدها صدفة في المنزل الصغير وقرر الاستفادة منها".

"لكن فسّر لي كيف توصلت إلى هذه النتائج".

"كما ترى، ريتزو كان يلعب ببطاقة مكشوفة، القلادة، وأخرى مخفية، الحقيبة. اكتشاف القلادة بأي طريقة يحدث

سيثبت أن إنغريد كانت في المنارة لحظة موت لوباريللو. إن دسّ أحدهم القلادة في جيبه ولم يقل شيئاً أبداً، فيتوجب عليه أن يلعب بطاقة المحفظة. لكنه كان محظوظاً، من وجهة نظره، فالقلادة عثر عليها واحد من النبّاشين، والذي سلّمني إياها. هو يبرر العثور عليها بحجة معقولة، لكنّه في الوقت نفسه أسّس مثلثاً هو سيوستروم، لوباريللو، المنارة. الحقيبة بدلاً من ذلك عثرتُ عليها أنا بناءً على تعارض شهادتين، وهي أنّ المرأة عند مغادرتها سيارة المهندس كانت تحمل بيدها حقيبة لم تعد بحوزتها عند صعودها السيارة الأخرى على طريق المقاطعة. لأختصر لك؛ رجلاه يعودان إلى البيت الصغير، يرتبان كل شيء، ويعيدان المفاتيح إليه. مع مطلع الفجر يتصل ريتزو بكاردamوني ويبدأ لعب أرواقه بشكل جيد".

"نعم، بالطبع، لكنه أيضاً يبدأ المقامرة بحياته".

"هذا حديث آخر، إن كان كذلك" قال مونتالبانو.

المفوض يحدق إليه باستياء.

"ماذا تقصد؟ ما الذي يدور في ذهنك بحق الجحيم؟".

"ببساطة، الوحيد الذي يخرج سليماً ومعافى من كل تلك القصة هو كاردوماني. ألا تعتقد أن مقتل ريتزو كان بمثابة نعمة إلهية بالنسبة إليه؟".

ارتعش المفوض، ولم يفهم إن كان يتحدث بجدية أو يراوغ.

"اسمع مونتالبانو، لا تأتِ بأفكار عبقرية أخرى! اترك كاردوماني بسلام، إنه رجل نبيل لا يملك القدرة على إيذاء ذبابة".

"كنت أمزح فقط سيدي المفوض. وإذا سمحت لنفسي أن أسأل: هل هناك أخبار في التحقيق؟".

"أيّ أخبار تريد؟ أنت تعرف من أي نوع كان ريتزو. من بين عشرة من معارفه، محترمين أو لا، ثمانية منهم بين محترمين وغير محترمين كانوا يودون رؤيته ميتاً. بريّة، غابة من القتلة المحتملين، عزيزي، سواء بطريقة مباشرة أو عبر وسطاء. سأقول لك إن قصتك تتمتع ببعض المعقولية فقط لأولئك الذين يعرفون من أي عجينة صنع المحامي ريتزو".

جرع كأس الأمارو التي كان يحتسيها.

"لقد أبهرتني. إنه تمرين عالٍ للذكاء. بدا لي أحياناً كأنك تسير على حبل دون شبكة تحته. لأنه، وأقول لك بصرحة، ثمة فراغ كبير تحت منطقك. لا تملك أي دليل على ما قلته لي، كل شيء يمكن قراءته بطريقة أخرى. ومحامٍ بارع سيكون قادراً على تفنيد استنتاجاتك دون أي جهد".

"أعلم ذلك".

"ما الذي تنوي فعله؟".

"سأخبر لو بيانكو غداً صباحاً أنه في حال أراد أرشفة القضية، فلا مشكلة".

-١٦-

"برونتو، مونتالبانو؟ أنا ميمي آوجيلو. هل أيقظتك؟ اعذرني، لكني أردت طمأنتك. لقد عدت إلى القاعدة. متى تغادر أنت؟".

"الطائرة من باليرمو موعدها في الثالثة. لذا عليّ مغادرة فيغاتا قرابة الثانية عشرة والنصف، مباشرةً بعد أن أتناول الطعام".

"لن نرى بعضنا إذاً، لأنني أعتقد أنني سأصل المكتب متأخراً بعض الشيء. هل من أخبار؟".

"سيخبرك إياها فاتزو".

"كم تعتقد أنك ستبقى في الخارج؟".

"حتى نهاية الخميس ضمناً".

"استمتع واسترخِ. فاتزو لديه رقمك في جنوة أليس كذلك؟ لأتصل بك إن كان ثمة أشياء دسمة".

نائبه، ميمي آوجيلو، عاد في الوقت المحدّد لانتهاء إجازته ليسمح له بالمغادرة دون مشكلات. آوجيلو شخص قدير.

اتصل بليفيا وأبلغها بموعد وصوله، بسعادة قالت ليفيا إنها ستكون بانتظاره في المطار.

***

بمجرد دخوله المكتب أبلغه فاتزو أن عمّال مصنع الملح، الذين وضعوا جميعاً تحت النقل، وهو تعبير مجازي مثير للشفقة بدلاً من القول إنهم طردوا جميعاً، قد احتلوا محطة القطارات. الإناث بينهم مستلقيات فوق السكك يمنعن مرور القطارات. الأسلحة في مكانها بالفعل. هل عليهم أن يذهبوا هم أيضاً؟

"لفعل ماذا؟".

"لا أعرف، لنمدّ يد العون".

"لمن؟".

"كيف لمن سيدي؟ للدرك، لرجال الشرطة، ثم نحن وإياهم واحد إلى أن يثبت خلاف ذلك".

"إن كنت حقاً تنوي تقديم يد المساعدة فامنحها لأولئك الذين يحتلون المحطة".

"سيدي، دوماً كان لدي هذا الاعتقاد: أنت شيوعي".

***

"المحقق؟ أنا ستيفانو لوباريللو، اعذرني. هل جاء ابن خالتي جورجيو لرؤيتكم؟".

"لا، ولا أخبار لدي".

"نحن في البيت بغاية القلق. حالما تعافى بفضل المهدئ خرج واختفى مجدداً. أمي تود بعض النصح، ألن تكون فكرةً جيّدة اللجوءُ إلى مخفر الشرطة للبحث عنه؟".

"لا. قل لأمك إنني لا أجدها فكرة سديدة. جورجيو سيعاود الظهور. أخبرها أن تبقى هادئة".

"على كل حال، إن بلغتك أيّ أخبار أرجو أن تعلمنا بذلك".

"سيكون ذلك صعباً جداً أيها المهندس، أنا ذاهب في إجازة، أعود يوم الجمعة".

***

الأيام الثلاثة الأولى التي أمضاها مع ليفيا في فيلتها الصغيرة في بوكاداس كادت تنسيه صقلية تماماً، وذلك بفضل فترات النوم العميق التي كان يمضيها بغية التعافي، واحتضان ليفيا له. مع ذلك فكل شيء تقريباً، من الخيانة، الرائحة، الكلام، وأشياء من أرضه استحوذت عليه، لمرتين أو ثلاث، فرفعته في الهواء دون ثقل لبضع لحظات وأعادته إلى فيغاتا. وفي كل مرة كان متيقناً أن ليفيا لاحظت ذلك الانسحاب اللحظي، والغياب، وتطلعت

إليه دون أن تنبس ببنت شفة.

***

مساء الخميس تلقّى مكالمةً غير متوقعة على الإطلاق من فاتزيو.

"لا شيء مهمّ سيدي، فقط أردت سماع صوتك والتأكد إن كنت عائداً يوم غد". أدرك مونتالبانو جيداً أن علاقة الرقيب بآوجيلو لم تكن يسيرة.

"هل تحتاج إلى استراحة؟ آوجيلو الشرير ينهك مؤخرتك؟".

"لا يعجبه ما أفعل".

"كن صبوراً. قلت لك سأعود غداً. هل من أخبار؟".

"يوم أمس اعتقلوا رئيس البلدية وثلاثة أعضاء بسبب الابتزاز والبضائع المسروقة أثناء أعمال توسعة المرفأ".

"أخيراً وصلوا".

"نعم سيدي، لكن لا تبنِ أوهاماً على ذلك. يحاولون هنا استنساخ حكام ميلانو، لكن ميلانو بعيدة جداً".

"هل هناك شيء آخر؟".

"لقد عثرنا على غامبارديللا، إن كنت تذكره؟ الشخص الذي حاولوا قتله بينما هو يملأ سيارته بالبنزين؟ لم يكن في الريف، بل كان محتجزاً في صندوق سيارته نفسها، والتي أضرموا فيها النار وأحرقوها بالكامل".

”إن كانوا قد أحرقوها بالكامل، فكيف علمتم أن غامبارديللا كان مختطفاً؟“.

”كانوا قد قيدوه بواسطة سلك سيدي“.

”أراك غداً فاتزيو“.

هذه المرة لم تكن الرائحة والحديث عن أرضه ما استحوذت عليه، بل الحماقة، الوحشية، والرعب.

***

بعد ممارسة الحب بقيت ليفيا صامتة لبعض الوقت، ثمّ أخذت يده.

”ماذا هناك؟ ما الذي أخبرك به الرقيب؟“.

”لا شيء مهمّ؛ صدقيني“.

”لماذا امتقع وجهك إذاً؟“.

أكّد لها مونتالبانو ملاحظتها؛ إن كان ثمّة شخص في العالم يمكنه أن يبوح له بكل ما يعتمل داخله فإنه ليفيا. لقد روى للمفوض نصف هواجسه، وربما تجاوز الكثير. جلس في منتصف السرير مستنداً إلى الوسادة.

”اسمعيني“.

***

أخبرها عن المنارة، عن المهندس لوباريللو، عن العاطفة التي كانت لديه تجاه قريبه جورجيو، رعايته له، وكيف تلك العاطفة في لحظةٍ (منحرفة؟ فاسدة؟) تحوّلت إلى حب، شغف، عن اللقاء الأخير في الصومعة في كابا ماسّاريا، عن موت لوباريللو، عن جورجيو كيف جنّ خوفاً من الفضيحة، ليس على نفسه، بل على صورة وذكرى زوج خالته، عن كيف ألبسه الشاب ملابسه بأفضل الممكن، وسحبه إلى السيارة لأخذه بعيداً للعثور عليه في مكان آخر، تحدث عن يأس جورجيو لإدراكه أن تلك التمثيلية غير متماسكة، لأن الجميع يمكنهم ملاحظة أنه ينقل رجلاً ميتاً، عن فكرة طوق الرقبة الطبي الذي كان عليه ارتداؤه قبل ذلك بأيام والذي ما يزال في السيارة، وعن محاولته إخفاء رقبته بواسطة قطعة قماش سوداء، عن خشيته أن تنتابه نوبة الصرع الذي يعاني منه، عن كيف اتصل بالمحامي ريتزو، وشرح من يكون المحامي ريتزو وكيف أدرك أن تلك الميتة، في وقتها، يمكن أن تكون حظّه.

حدثها عن إنغريد، عن زوجها جياكومو، عن السيد كاردوماني، عن الوحشية، ولم يعثر على كلمة أخرى لتوصيف علاقته بزوجة ابنه ("يا لها من قذارة" علّقت ليفيا)، عن كيف اشتبه ريتزو بهذه العلاقة، وكيف حاول توريط إنغريد، ونجاحه مع كاردوموني وليس معه، حكى لها عن مارلين وشريكه،

الرحلة المجنونة في السيارة، ومشهد التمثيل الإيمائي داخل السيارة المتوقفة في المنارة، ("اعذرني لحظة، عليّ شرب شيء قوي"). عند عودتها واصل رواية التفاصيل المروعة الأخرى، القلادة، الحقيبة، الملابس، وأخبرها عن انهيار جورجيو عند رؤيته الصور، لإدراكه خيانة ريتزو المزدوجة تجاهه وتجاه ذكرى لوباريللو الذي رغب في حفظها بأي ثمن.

"انتظر لحظة" قالت ليفيا: "هل إنغريد تلك جميلة؟".

"جميلة جداً. ولأنني أفهم جيداً ما يدور في خلدك، سأخبرك المزيد: لقد تخلصتُ من كل الأدلة التي تدينها".

"هذا لا يشبهك" قالت ليفيا باستياء.

"فعلتُ أيضاً ما هو أسوأ، أصغي إليّ: ريتزو الذي صار كاردوماني رهن يديه، يبلغ هدفه السياسي، لكنه ارتكب خطأ، لقد استخف برد فعل جورجيو. هو شاب ذو جمال استثنائي".

"حتى أنت! تابع" حاولت ليفيا المزاح.

"لكن شخصيته هشّة للغاية" تابع المحقق: "تحت صدمته من موجة المشاعر، هرع إلى البيت الصغير في كابا ماسّاريا، أخذ مسدس لوباريللو، قابل ريتزو، ذبحه ثم أطلق عليه النار في مؤخرة رأسه".

"هل اعتقلته؟".

"لا، لقد أخبرتك أنني فعلت الأسوأ. انظري، زملائي في مونتيلوزا يعتقدون، وهي فرضية غير مستبعدة، أن من قتل ريتزو هي المافيا. وأنا سكتُّ تاركاً إياهم على ما يعتقدونه الحقيقة".

"لكن لماذا؟".

لم يجب مونتالبانو، واكتفى بنشر ذراعيه. ذهبت ليفيا إلى الحمّام، سمع المحقق الماء يتدفق في الحوض. عندما طلب إليها السماح له بالدخول بعد بعض الوقت، وجدها ما تزال منغمسة بالماء بالكامل داخل البانيو، تستند بذقنها إلى ركبتيها المثنيتين.

"هل كنت تعلم بوجود مسدس في ذلك المنزل؟".

"نعم".

"وتركته هناك؟".

"نعم".

"أنت تعلي من شأن نفسك، أليس كذلك؟" سألت ليفيا بعدما بقيت صامتة لفترة طويلة: "من محقق إلى إله. إله من الدرجة الرابعة، لكنه يبقى إلهاً".

***

نزل من الطائرة وهرع إلى مقهى المطار، كان يحتاج فنجاناً حقيقياً من القهوة بعد زوم الشطف الأسود الذي أعطوه إياه

أثناء الرحلة. سمع من يناديه، كان ستيفانو لوباريللو.

"ماذا تفعل هنا أيها المهندس؟ هل أنت عائد إلى ميلانو؟".

"نعم، سأعود للعمل، لقد انقطعت عنه فترة طويلة. سأذهب أيضاً للبحث عن منزل أكبر لي، بمجرد عثوري عليه ستلحق أمي بي. لا أريد أن تركها وحيدة".

"جيد جداً، مع أنها في مونتيلوزا لديها أخت، وابن أخت...".

"إذاً أنت لم تعرف؟".

"ماذا؟".

"لقد مات جورجيو".

وضع مونتالبانو الكوب على الأرض وفاضت القهوة منه نتيجة الاصطدام.

"كيف حدث ذلك؟".

"هل تذكر مكالمتي لك يوم مغادرتك لسؤالك إن كان قد جاء إليك؟".

"أذكر جيداً".

"حتى الصباح التالي لم يكن قد عاد بعد. شعرت بضرورة إبلاغ الشرطة والدرك، أجروا بحثاً سخيفاً، اعذرني، ولكن يبدو أنهم كانوا منشغلين بالتحقيق في مقتل المحامي ريتزو. عند عصر يوم الأحد وجد صياد على متن قارب سيارة محطمة

أسفل منحدر سان فيليبّو. تعرف المنطقة أليس كذلك؟ إنها تقع مباشرة قبل كابو ماسّاريا".

"أجل، أعرفها جيداً".

"حسناً، جدّف الصياد باتّجاه السيارة، وهناك وجد جثّة خلف المقود، فسارع بالإبلاغ عنها".

"هل نجحوا بتحديد أسباب الحادثة؟".

"نعم، ابن خالتي، كما تعلم، منذ لحظة وفاة أبي، كان يعاني اضطراباً، الكثير من المهدئات، الكثير من المسكنات. وهو بدلاً من اتباع المنعطف، انطلق بشكل مستقيم، وكان في تلك اللحظة يقود بسرعة كبيرة فاصطدم بالجدار. لم يكن قد تعافى بعد، كان لديه شغف كبير بوالدي، كان يعشقه". قال هاتين الكلمتين، شغف وعشق، بنبرة واثقة ودقيقة، لمحاولة محو كل تشويه ممكن للمعنى المعيب الذي قد تنطويان عليه. تمّ النداء على ركاب الطائرة المتجهة إلى ميلانو عبر مكبرات الصوت.

***

مباشرةً خارج موقف المطار، حيث ترك سيارته، ضغط مونتالبانو دواسة البنزين إلى أقصى حد، لم يكن يرغب في التفكير في شيء، فقط أراد التركيز على القيادة. بعد مئة كيلومتر توقف

عند ضفة بحيرة اصطناعية، نزل، فتح صندوق السيارة، أخرج طوق الرقبة الطبي، وألقاه في الماء، انتظر حتى يغرق. عندئذ فقط ابتسم، كان يرغب في التصرف كإله، كانت ليفيا محقة، لكن ذلك الإله في تجربته الأولى كان من الدرجة الرابعة، وأمِل أن يكون قد خمّن جيداً في تجربته الأخيرة.

***

للوصول إلى فيغاتا كان عليه العبور أمام مركز شرطة مونتيلوزا. هناك تماماً قررت سيارته أن تموت فجأة. حاول مونتالبانو إعادة تشغيلها أكثر من مرة دون جدوى. نزل منها وكان على وشك الذهاب إلى مركز الشرطة طلباً للمساعدة عندما اقترب منه عنصر يعرفه ورأى محاولاته غير المجدية.

رفع العنصر غطاء المحرك، عبث بعض الشيء، ثم أغلقه.

"كل شيء على ما يرام، لكن جربها".

عاد مونتالبانو إلى السيارة، أدار المحرك، وانحنى لالتقاط بعض الصحف التي سقطت، وعندما نهض رأى آنّا تتكئ إلى النافذة المفتوحة.

"كيف حالك آنّا؟".

لم تجب آنّا بل بقيت ببساطة تحدق إليه.

"إذاً؟".

”هل ستكون رجلاً مخلصاً؟“ قالت بحشرجة. أدرك مونتالبانو أنها تشير إلى الليلة التي رأت فيها إنغريد مستلقية في سريره نصف عارية.

”لا، لست كذلك“ قال: ”لكن ليس بسبب ما تفكرين فيه“.

ملاحظة الكاتب

أجد من الضروري الإيضاح أن هذه القصة لم تولد من الصحف، وليست تجميعاً لوقائع حقيقية حدثت: باختصار، اللوم كلّه يقع على مخيلتي. ونظراً إلى أنّ الواقع في الآونة الأخيرة يبدو راغباً في التفوق على الخيال، أو بالأحرى، إلغائه، فقد حدثت لي بعض المصادفات غير السارة بشأن الأسماء والأحداث. لكن في ألعاب المصادفة، نحن نعلم، أنّه لا يمكن أن نتحمّل المسؤولية.

أندريا كاميلليري

’كاميلليري واحدٌ من أعظم كتّاب الجريمة في أوروبا‘

Daily Mail

’متعة خالصة‘

Le Monde

في مكانٍ سيئ السّمعة يُعثر على لوباريللو، رجل السياسة المرموق، ميتاً داخل سيارته.

كلّ الأدلة تشير إلى وفاةٍ طبيعية، غير أنّ للمحقّق مونتالبانو وجهة نظرٍ مختلفة.

ثمانٍ وأربعون ساعة من التحقيقات والاستقصاءات المتواصلة يروي فيها كاميلليري تفاصيل الحياة داخل فيغاتا، البلدة الصقليّة الافتراضية، حيث يعيش الناس تحت وطأة الفساد والجريمة والفقر، ما يجعل الحقيقة كالماء، تأخذ الشكل الذي توضع فيه.

أندريا كاميلليري كاتب وسيناريست ومخرج إيطالي. اشتهر بروايات الجريمة والتّحقيق، أبرزها 28 روايةً في سلسلة «المحقّق مونتالبانو». ’شكل الماء‘ واحدة من هذه الرّوايات.







ISBN 978-614-03-2251-6

www.daralsaqi.com